المتنبئ الصغير

الدكتور عمر الأسعد
جامعة اليرموك - كلية الآداب

دار العلوم
الرياض - المملكة العربية السعودية

المتنبي الصغير

الدكتور عمر الأسعد
جامعة اليرموك – كلية الآداب

شبكة كتب الشيعة

دار العلوم
الرياض – المملكة العربية السعودية

shiabooks.net
mktba.net رابط بديل

دار الجيل للطباعة ١٤ قصر اللؤلؤة - النجالة
تليفون ٩٠٥٢٩٦

أبو المظفر الأبيوردي

حياته وشعره

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

يمثل الشاعر أبو المظفر محمد بن أحمد الأبيوردي المتوفى سنة سبع وخمس مئة ، النقلة بين العصور العباسية الزاهية وأعلامها من الشعراء النابهين ، وما تلاها من عصور عز فيها الشعراء المتميزون . فشاعرنا من بقايا فصاح تلك العصور الأدبية العباسية ، ممن عاشوا في العصر السلجوقي الأول . في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري . وقد عاصر أديبنا من خلفاء بني العباس كلا من القائم والمقتدي والمستظهر ، فأدرك من عهد القائم السنوات السبع عشرة الأخيرة ، وهي سنو حياته الأولى ، وعايش المقتدي عهده كله وهو عشرون سنة . وسلخ من عهد المستظهر مثلها حيث مات قبل الخليفة بخمس سنين ، منفقاً حياته في التنقل بين بغداد وهمذان وأصفهان . أما سلاطين السلاجقة وهم أصحاب السلطة الفعلية في هذا القرن وما تلاه ، فعاصر منهم الثلاثة العظام والثلاثة الذين تلوهم ، فقد ولد زمن مؤسس الدولة طغرلبك أو بعده بقليل . وترعرع ونشأ نشأته الأولى زمن ألب أرسلان ، وبلغ أشده واشتد عوده أيام ملكشاه وابنه محمود ، وشارف مرحلة النضج في سلطنة بركيارق ومحمد ابني ملكشاه

وكما كان له مع المقتدي والمستظهر اتصالات دلت عليها مدائحه فيهما ، فقد كان له مثل ذلك مع بعض السلاطين ، ولكن على نطاق أضيق . وأوسع من هذا وذاك ما قام بينه وبين وزراء هؤلاء ورجالهم وحواشيهم من صلات وعلاقات انعكست صورتها فيما حفظه لنا ديوانه من أشعاره فيهم . ومن يرصد شعره في هؤلاء يهتد إلى طبيعة تلك العلاقات والتغيرات التي اعتورتها ، تبعاً للتطورات السياسية والمصالح الفردية .

ترجم للأبيوردى عدد من المراجع أخذ متأخرها ما رواه متقدمها . وأوفى ترجمة له الترجمة التى جاءت فى معجم الأدباء ووفيات الأعيان . واتفقت المراجع على اسم الشاعر ، وانتهت بنسبه إلى معاوية الأصغر أحد فروع أبى سفيان ، ولاحظت أنه كان يعتز بنسبه الأموى المعاوى ويذكره فى شعره كثيراً .

وعرف الشاعر بالكوفين أحياناً وبالأبيوردى غالباً ، نسبة إلى كوفن وأبيورد ، وهما بلدتان فى خراسان ، ولد فى الأولى ونشأ نشأته المبكرة فى الثانية . أما تاريخ ولادته فقد اكتنفه الغموض لسكوت كتب التراجم عن ذكره . وقد أمكن من استقراء مجموعة من الإشارات والدلائل والربط بينها ، تحديد سنة سبع وخمسين وأربع مئة موعداً تقريباً لمولده .

عاش الأبيوردى حياة علمية خصبة يدل عليها أسماء عدد من مشاهير الأعلام الذين تلمذ لهم وأخذ عنهم وتلقوا عنه ؛ فقد سمع عن طائفة من الشيوخ ، ونقل عنه الحفاظ الأثبات الثقات . وليست كثرة عدد شيوخه وتلاميذه ممن أخذ عنهم وتلقوا عنه تدل وحدها على خصوبة حياته العلمية ، بل تدل عليها أيضاً كثرة معارفه وتعدد جوانبها . وقد جمع ياقوت بعض تلك المعارف بقوله فى الترجمة له فى معجمه : « كان إماماً فى كل فن من العلوم ، عارفاً بالنحو واللغة والنسب والأخبار ، ويده باسطة فى البلاغة والإنشاء ، وله تصانيف فى جميع ذلك ، وشعره سائر مشهور » . ويضاف إلى ذلك كله ما ذكر من أنه أحد القراء ورواة الحديث . ونظرة عجلى إلى ثبت آثاره تثبت تنوع معارفه واتساعها ؛ فهو شاعر ناثر معاً ، خلف إلى جانب ديوانه الكبير عدداً من المؤلفات بلغت ستة عشر مؤلفاً ، لم يصل إلينا منها لسوء الحظ سوى ديوانه وكتاب آخر قيم فى اللغة والأدب ، سماه زاد الرفاق فى المحاضرات ، ونهج فيه منهج كتب الأمالى المعروفة ، فهو بها أشبه .

ما هى الصبغة العامة التى صبغت أخلاق الأبيوردى فحددت سلوكه الفردى والاجتماعى ، وعلاقاته بالناس وممدوحيه منهم بخاصة ؟ لقد كان موقفه من الناس موقف الذى يدل عليهم بنسبه العريق وآماله العراض ، وينظر إليهم نظرة علوية فيها كثير من الاحتقار ، محاكياً فى ذلك المتنبى ، ومبالغاً فى التطرف مثله . أما صفاته الشخصية فهى مجموعة فضائل رسم لها فى ديوانه صوراً كثيرة .

وقد اتخذ ممن اتصل بهم من الممدوحين موقفاً دعاه إليه نسبه الأصيل وخلقه الكريم ، وانطوى على التعفف والترفع عما انزلقت إليه جمهرة شعراء العصر فى اتخاذ المديح وسيلة للتكسب .

يقول :

وطافت بالعلا هممى وعافت
غنى أرعى به كلأً وبيلا
فلم أحمد لعارفه جواداً
ولم أذمم على منعٍ بخيلا

أما مذهبه فى النظم ونظرته إلى وظيفة الشعر ، فهى نظرة مثالية سامية يمثلها قوله :

إن سنّى العدم فاستبقى الحياء ولا
تكلّفينى مديح العصبة السّفل
وشعر مثلى ــ وخير القول أصدقه ــ
ما كان يفترّ عن فخر وعن غزل

أما الهجـــاء فلا أَرضى بـــه كرماً
والمـدح إن قلتــه فالمجد يغضب لِى

وكيف أَمـدح أَقـــواماً أَوائلهم
كانوا لأَسلافنا المـــاضين كالخول

ولكن الناظر فى شعره يجد أن قصائد المديح تشكل عمود ديوانه . ومع أنه تخير ممدوحيه من علية القوم ، وتناول فى مدحهم الموضوعات المتداولة والمعانى المطروقة فقد امتاز مدحه بميزتين ظاهرتين :

الأولى : القدرة الفائقة على صياغة المعنى الواحد بأساليب مختلفة ، وصبه فى قوالب متعددة تكسبه كثيراً من الرواء ، وتضفى عليه كثيراً من الماء والرونق .

والثانية : تجنب الإسفاف فى المديح ، والتعويض عن ذلك بما كانت تلح به عليه أخلاقه السامية وتطلعاته الواسعة ؛ فطالما كان يستغل مواقف مدحية معينة لينفذ منها إلى الفخر بنفسه وقومه تارة ، والفخر بشعره تارة أخرى. وكأنما أراد لممدوحيه أن تخلد أعمالهم بشعره لا أن يخلد شعره بمدحهم . ولعله أدرك منزلة شعره فعبر عن إحساسه بجودته وتنبأ بخلوده فى مواطن عدة من ديوانه منها قوله :

كلماتِى قـــلائـــد الأَعنـــاق
سوف تفـــنى الدهـــور وهى بواق

دلّ فيهـــا الذهن الجـــلىّ بـألفا
ظٍ رقاق عـــلى معـــان دقاق

فقـــريضى يـــراه من ينقـــد الأشـ
عـــار سهـــل المـــرام صعب المراقى

وإليـــه يصبـــو الرواة ، وفيـــه
مـــع شكل الحجاز ظرف العراق

مـــوئس مطمـــع قريب بعيـــد
فهو أنس المقـــيم زاد الرفاق

وإلى جانب المديح والافتخار يبرز الغزل واحداً من الأغراض الرئيسية التى نظم فيها الشاعر . وقد أخرج غزله على نوعين لكل منهما خصائصه ومميزاته ؛ أولهما غزل المقطعات الذى أوسع له فى ديوانه حيزاً كبيراً ، وأفرد له فيه جزءاً خاصاً . وثانيهما غزل المطالع الذى استهل به مطولاته المدحية ، وضمنه ذكر التحمل ووصف مشاهد الوداع والفراق ، والوقوف على طول ديار الأحبة ، وما إلى ذلك مما لا تحتمله المقطعات الغزلية . وجملة القول فى غزله أنه ارتضى له ما ارتضاه لمديحه من عفة النفس وكريم الأخلاق :

وأكرم أخـــلاق يُدلّ بهـــا الفتى
عفاف مشوق حين يخـــلو بشائق

ولقد غنى شعر الأبيوردى بالألفاظ الفصيحة ، وازدان بالصور الرائقة . واكتنى للتدليل على ذلك بمشهد حوارى بين إحدى فتياته وسرب من رفيقاتها ، مداره الشاعر نفسه . يقول :

فقلن لهـــا : من أَينَ أَوضح ذا الفتى
ومنشوءُ غـــوار تهامـــة أَو نجـــد

ففِي لفظـــه علويـــة من فصاحة
وقـــد كاد من أَشعاره يقطر المجد

فقالت : غلام من قريش تقاذفت
به نيّـــة يعيي بهـــا العاجز الوغـــد

لعمـــــر أبيهـــا إنهـــا لخبيرة
بأَروع يَمرِى دَرّ نائـــله الحمـــد

من القـــوم تستحلى المنايا نفوسهم
ويختال تيهـــاً فى ظلالهم الوفـــد

ومن لان للخطب الملمّ عريكة
فإنى على ما نابنى حجـــر صلد

بلغت أَشدى والزمان ممارس
جماحِي عليه وهو ما راضنِي بعد !

ويمكن القول بعد ذلك بعيداً عن المبالغة ، وتأثير العاطفة الناشئة من إلف الديوان وصلتى به الطويلة ، إن ديوان الشاعر ثروة لغوية شعرية كبيرة ، وإن الناظر فيه يستجلى فى أشعاره كنوزاً من فصيح الألفاظ وبليغ العبارات ورائع الصور .

ولقد قسم الشاعر شعره قسمين سمى الأول منهما العراقيات ، وسمى الثانى النجديات ؛ وسميت العراقيات كذلك دلالة على المكان الذى تهيأ نظمها فيه فى أقطار الجبل والعراق . وسميت النجديات كذلك دلالة على موضوعها الذى تناولته وهو الغزل .

وقادت دراسة شعر الأبيوردى إلى أنه فى نجدياته تلميذ الشريف الرضى فى حجازياته ، وأنه فى فخرياته تلميذ المتنبى ، يسمو سموه ويشاركه تطلعاته ، فهو بحق المتنبئ الصغير .

وقد حملت هذه الدراسة فى طياتها ثبتاً طويلا يؤرخ لنظم كثير من قصائد الديوان الرئيسية . ولا يخفى ما لمعرفة التسلسل التاريخى للنظم من أهمية فى رصد منحى تفكير الشاعر وتطور أساليبه وفنه ، وفى ربط الأحداث التاريخية بالشعر ، وفى دلالته عليها .

هذا وقد وقعت الدراسة فى ثلاثة أبواب تناولت فى أولها عصر الأدب بكلمة فى تاريخ العهد السلجوقى فى النصف الثانى من القرن الخامس ، وبنظرة فى شعر العصر السلجوقى من خلال ظواهر شعرية معينة . وتحدثت فى الباب الثانى عن الأديب نفسه فذكرت مراجع ترجمته ، وعرضت جوانب حياته عرضاً وافياً . وخصصت الباب الثالث للكلام على نتاج الأديب شعره ونثره ، فبسطت القول فيهما ، وبينت بعض خصائصهما ، ومثلت لها بنموذجات ضافية .

وبعد : فآمل أن تكون هذه الدراسة قد أبرزت علماً من أعلام القرن الخامس طالما بقى مغموراً وبقيت آثاره تحت الركام ، وجلت وجهه العربى

الأصيل ، وأبانت عن جوانب حياته المختلفة ، وتناولت بعض ظواهر شعره العامة ، وأوضحت ملامحه المتميزة – وأن تكون إرهاصة لما عقدت العزم عليه من نشر آثار الأبيوردى بدءاً بديوانه الضخم ، وانتهاء بما سلم لنا من آثاره النثرية .

وأسأل الله تعالى أن يسدد الخطا ويهدى إلى سواء السبيل .

عمر الأسعد

جمادى الآخرة ١٣٩٦ هـ .

الباب الأول

تمهيد

الفصل الأول : فى تاريخ العصر السلجوقى

الفصل الثانى : فى شعر العصر السلجوقى

١ — أحوال الشعر

٢ — وحدة القصيدة

٣ — الصياغة الشعرية

٤ — التصوير

٥ — الأوزان والقوافى

الفصل الأول

كلمة فى تاريخ العصر السلجوقى

شهدت بلاد المشرق الإسلامى فى القرن الخامس الهجرى — وهو العصر الذى عاش فيه الشاعر الأبيوردى — أحداثاً تاريخية عميقة ، وتطورات سياسية هامة . وعد هذا القرن نقطة تحول فى التاريخ الإسلامى لكثرة ما حملت الأحداث الجارية فيه من تطورات ، وما تركت من مضاعفات ، وما خلفت من ذيول :

فى خراسان والعراق — موطن شاعرنا الأبيوردى — ولد عهد جديد فى الحكم والسياسة ؛ فقد ظهرت دولة السلاجقة ، وامتدت إلى بغداد حاضرة الخلافة العباسية ، وأمدتها بدماء جديدة جددت شبابها وأعادت إليها قوتها وهيبتها ، ولبثت تتصرف بمقاليد هذه البلاد طوال القرن الخامس والسادس بين القوة والضعف ، حسب اختلاف الأزمان وتقلب السلاطين .

وفى بلاد الشام بدأ تدفق جيوش الغزو الصليبى واستقرارها ، وتبع ذلك إنشاء الممالك والدول التى عمر بعضها إلى ما بعد انتهاء القرن السادس الهجرى .

ولا يعنينا هنا الوقوف على الأحوال السياسية فى العراق وخراسان ، ومعرفة أخبار الدول التى قامت فيهما ، بل يهمنا ذكر السلاطين الذين توارثوا عرش السلطنة ، والخلفاء الذين اعتلوا سدة الخلافة ، ممن اتصل بهم الشاعر من قريب أو بعيد . ويهمنا كذلك رسم الإطار العام لهذه الفترة بذكر وقائعها الهامة وأحداثها البارزة ؛

انقسم السلاجقة الذين بدأ ظهورهم واستيلاؤهم على البلدان والممالك الإسلامية بعد الثلث الأول للقرن الخامس ، إلى أربعة بيوت فى أربع دول أشهرها الدولة السلجوقية الكبرى ، وهى التى أسسها طغرلبك سنة ٤٢٩ ، وملكت خراسان والرى والعراق والجزيرة وفارس والأهواز . . وعمرت حتى سنة ٥٩٠ ، وانقرضت على أيدى شاهات خوارزم[١] .

ويمكن تقسيم فترة سيادة هذه الدولة منذ ظهور السلاجقة فى المنطقة حتى سقوط آخر سلاطينهم سنة ٥٩٠ إلى ثلاثة عصور :

١ – عصر السلاجقة العظام، وهو عصر التأسيس الذى انتهى بانتهاء عصر ملكشاه سنة ٤٨٥ . وفيه السلاطين الثلاثة :

– طغرلبك محمد بن ميكائيل بن سلجوق (٣٨٥ – ٤٥٥) .

– ألب أرسلان محمد بن داود بن ميكائيل (٥٣١ – ٤٦٥) .

– ملكشاه بن ألب أرسلان (٤٤٧ – ٤٨٥) .

٢ – العصر الأوسط الذى ينتهى بموت السلطان سنجر سنة ٥٥٢ . وأبرز سلاطينه :

– بركيارق بن ملكشاه (٤٧٤ – ٤٩٨) .

– محمد بن ملكشاه (٤٧٤ – ٥١١) .

– سنجر بن ملكشاه (٤٧٩ – ٥٥٢).

(١) والدول السلجوقية الأخرى :

– سلاجقة كرمان (٤٣٢ – ٥٨٣) وانقضت على أيدى الغز التركمان .

– سلاجقة سورية (٤٨٧ – ٥١١) وانتهت على أيدى الدولتين النورية والأرتقية .

– سلاجقة الروم (٤٧٠ – ٧٠٠) وانتهت على أيدى الأتراك العثمانيين والمغول .

٣ – عصر الاضمحلال والسقوط الذى ينتهى بمقتل آخر سلاطين السلاجقة طغرل بن أرسلان شاه سنة ٥٩٠ .

ورغم ما حفلت به العصور الثلاثة من صراع عائلى على السلطة بلغ أحياناً كثيرة حد النزال الدموى ، فقد نعمت البلاد بفضل همة السلاطين العظام وحسن سيرتهم ، بفترات طويلة من الاستقرار والازدهار والرخاء ؛ فقد « كان عمارة البلاد معذوقاً بوجودهم ، والرعية مغمورين بفضلهم وجودهم ، والعدل مبسوطاً فى البلاد ، والأمن قد شمل العباد . .[١] » ، ولقد امتلأ وجه الأرض بالعمائر التى أقامها آل سلجوق ، وبأبنية الخيرات التى أنشؤوها ، فلم تبق مدينة من مدن الإسلام خالية من هذه المؤسسات لأنهم كانوا يعتبرونها من أمهات المهمات التى خصوها بالتفضيل والتقديم[٢] » .

وفى فترة حكم السلاجقة وسيادة دولتهم أكثر من قرن ونصف قرن (٤٢٩ – ٥٩٠) ولى الخلافة العباسية تسعة خلفاء (من الخليفة السادس والعشرين إلى الخليفة الرابع والثلاثين) بدءاً بعبد الله القائم بن القادر (٣٩١ – ٤٦٧) وانتهاء بأحمد الناصر بن المستضىء (٥٥٣ – ٦٢٢) . وفى الثبت التالى ذكر للخلفاء العباسيين ومن يقابلهم من السلاطين وسنوات حكم واحد فى الفريقين منذ نشوء السلاجقة حتى نهاية القرن الخامس ، وهى الفترة التى نعنى بدراستها .

---

(١) أخبار الدولة السلجوقية ص ١٩٦ .

(٢) راحة الصدور ص ١٦٠ .

القائم ٤٢٢ — ٤٦٧	طغرلبك	٤٢٩ — ٤٥٥
	ألب أرسلان	٤٥٥ — ٤٦٥
المقتدى ٤٦٧ — ٤٨٧	ملكشاه	٤٦٥ — ٤٨٥
	محمود	٤٨٥ — ٤٨٧
المستظهر ٤٨٧ — ٥١٢	بركيارق	٤٨٧ — ٤٩٨
	محمد	٤٩٨ — ٥١١

ويلاحظ مما تقدم أن سلطنة آل سلجوق ابتدأت فى عهد القائم بأمر الله ، وانتهت فى عهد الناصر لدين الله ، وأن القائم والمقتدى هما اللذان عاصرا عصر السلاجقة العظام ، وأن مشاكل الأسرة السلجوقية المتمثلة فى التنازع على السلطة والسلطنة ظهرت فى عصر المقتدى بعد وفاة ملكشاه ، واستفحلت فى عصر المستظهر بين بركيارق وأخيه محمد .

وتكاد المصادر تجمع على أن أمر الخلافة فى العهود السلجوقية — والعهود البويهية من قبل — آل إلى الضعف ؛ فقد أصبحت الخلافة بالمقارنة بعصر الخلفاء الذهبي الذى إنتهى بمقتل المتوكل سنة ٢٤٧ ، اسما بلا مسمى ، وصارت كتب التاريخ التى حفلت بسير أولئك الخلفاء العظام ، وسودت صحائفها بسرد حوادث أزمانهم وتفصيل وقائعها ، تكتفى بذكر خلفاء العصور السلجوقية على هامش الأحداث الجارية ، وصار السلطان محور الأحداث بعد أن كان الخليفة قطبها ومحركها .

عاصر الخليفة القائم[١] كل من مؤسس الدولة طغرلبك[٢] وابن أخيه ألب أرسلان[٣] معاصرة كاملة . أما الخليفة المقتدى[٤]

---

(١) أبو جعفر عبد الله بن القادر . ولد سنة ٣٩١ ، وولى الخلافة بعد موت أبيه سنة ٤٢٢ ، ومات سنة ٤٦٧ ، فيكون عمره ستاً وسبعين سنة ، ومدة خلافته خمساً وأربعين سنة . ولاه أبوه ولاية عهده فى حياته ، ولقبه بالقائم بأمر الله . أثنى عليه السيوطى ووصفه بالعلم والعدل . . (انظر تاريخ الخلفاء ص ١٦٧) . ومن أهم الحوادث التى وقعت فى عصره :

– نشوء دولة آل سلجوق وزوال ملك البويهيين سنة ٤٢٩ ، والوقائع التى رافقت النشأة وتأسيس الدولة (للتوسع فى معرفة أصل السلاجقة ودولهم والأحداث التى واكبت نشوءهم انظر مثلا الوفيات ٥ : ٦٣ (وما بعدها ، وراحة الصدور ص ١٤٥ – ١٥٨ ، ومحاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ص ٤١٢ – ٤٢١) .

– نفيه من بغداد مدة استيلاء البساسيرى عليها (٤٥٠ – ٤٥١) . انظر مثلا تاريخ الإسلام ٤ : ١٢ ، ومحاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ص ٤٢٣ وما بعدها .

– زواج السلطان طغرلبك من ابنته برغم عنه سنة ٤٥٤ . انظر الوفيات ٥ : ٦٦ وراحة الصدور ص ١٧٧ – ١٧٨ ، وتاريخ الخلفاء ص ١٦٨ .

(٢) هو السلطان المعظم ركن الدنيا والدين أبوطالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق يمين أمير المؤمنين (راحة الصدور ص ١٤٣) . وطغرلبك اسم علم لطائر بلغة الترك ، وبه سمى الرجل ، وهو مركب من « طغرل » و « بك » ومعناها الأمير . (انظر الوفيات ٥ : ٦٨) . ولد سنة ٣٨٥ وتوفى سنة ٤٥٥ فكان عمره سبعين سنة ، ومدة ملكه ستاً وعشرين سنة .

(٣) هو السلطان الأعظم عضد الدولة أبوشجاع ألب أرسلان محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق برهان أمير المؤمنين (راحة الصدور ص ١٤٣) . وألب أرسلان اسم تركى معناه شجاع أسد ، فألب : شجاع ، وأرسلان : أسد . (انظر الوفيات ٥ : ٧١) . ولد سنة ٤٣١ على الأرجح وتوفى سنة ٤٦٥ ، فيكون قد عاش ٣٤ سنة وملك عشر سنوات .

وقد امتدح المؤرخون كلا من طغرلبك وابن أخيه ألب أرسلان ، والأول لمجهوداته الضخمة فى إرساء أسس السلطنة ، والثانى لمساعيه القوية فى توطيد أركانها وتوسيع رقعتها ، متمثلة فى موقعة ملازكرد التى قادها ضد الإمبراطور البيزنطى رومانوس سنة ٤٦٣ ، وانتصر فيها انتصاراً حاسماً .

(٤) أبو القاسم عبد الله بن محمد بن القاسم . ولد سنة ٤٤٨ بعد موت أبيه بستة أشهر ، ولم يكن من نسل القائم ذكر سواه ، فولاه جده ولاية العهد فى حياته ، وبويع له بالخلافة بعد موت جده سنة ٤٦٧ ، ومات فجأة سنة ٤٨٧ ، فيكون عمره تسعاً وثلاثين سنة ، ومدة خلافته عشرين سنة إلا قليلا .

فقد عاصره كل من ملكشاه[١] وولده محمود[٢] الذى توفى سنة وفاة المقتدى ، فجاء بعدهما من الخلفاء المستظهر[٣] ومن السلاطين

= أثنى عليه المؤرخون وأشادوا بأخلاقه وعدالته وحسن أيام دولته . . (انظر مثلا ابن الأثير ١٠ : ٨٥ – ٨٦ ، وتاريخ الخلفاء ص ١٦٩) ومدحه شاعرنا فى عدد من قصائد ديوانه بمثل ذلك . وكان عهده – وهو عهد السلطان ملكشاه – عهد استقرار سياسى وإصلاح اجتماعى .

(١) هو السلطان معز الدنيا والدين ملكشاه بن محمد قسيم أمير المؤمنين (راحة الصدور ص ١٤٣) . ولد سنة ٤٤٧ ، وتولى السلطنة سنة ٤٦٥ ، وتوفى سنة ٤٨٥ ، فكان عمره ثمانياً وثلاثين سنة ومدة ملكه عشرين سنة .

ولعل خير ما وصف به عهده قول الراوندى (راحة الصدور ص ١٩٨) « تولى آباؤه فتح العالم ، فلما جاءت نوبته تولى إدارته وتعميره ، وغرسوا له شجرة الدولة فجنى قطافها ، وأسسوا له عرش السلطنة فتربع على دسته ، وصار عهده شباباً للدولة وربيعاً لأيام الملك ، وطرازاً لأبهى حلة ، فالعالم مسلم له ، ورايته منصورة ، ورعيته هانئة ، وبلاده معمورة » . وانظر أيضاً ما وصفه به ابن خلكان (الوفيات ٢ : ٢٨٣ – ٢٨٩) .

وتجب الإشارة فى هذا المقام إلى نظام الملك الحسن بن على بن إسحاق (٤٠٨ – ٤٨٥) وزير السلطان ووزير أبيه ، وساعده الأيمن الذى كان وراء عظمة العهد واستقراره . (انظر ترجمة وافية له فى الوفيات ٢ : ١٢٨ – ١٣١ ، وطبقات الشافعية ٣ : ١٣٥ – ١٤٥ ، وابن الأثير ١٠ : ٧٥ – ٧٨) .

(٢) هو السلطان ناصر الدنيا والدين . كان ملكشاه قد عهد بولاية العهد إلى أكبر أولاده بركيارق ، إلا أن والدة محمود ما زالت بالخليفة حتى أقر ابنها فى السلطنة وعمره أربع سنوات. ما لبث أن توفى بعد أحداث طويلة . . (انظر تفاصيلها فى ابن الأثير ١٠ : ٨٠ ، وراحة الصدور ص ٢١٥ – ٢١٩) .

(٣) أبو العباس أحمد بن المقتدى بالله . ولد سنة ٤٧٠ ، وبويع له بالخلافة بعد موت أبيه سنة ٤٨٧ ، ومات أوائل سنة ٥١٢ ، فيكون عمره إحدى وأربعين سنة ، ومدة خلافته أربعاً وعشرين سنة . أثنى عليه المؤرخون (انظر مثلا ابن الأثير ١٠ : ٢٢ ، وتاريخ الخلفاء ص ١٧٠) وامتدحه شاعرنا بعدة قصائد .

إلا أن الخلافة لم تصف له ، بل كانت أيامه مضطربة كثيرة الحروب : فمن جهة استفحلت الخلافات الدموية بين أعضاء الأسرة السلجوقية طمعاً فى الملك ، ومن جهة أخرى عظم أمر الباطنية بأصفهان والعراق ، ومن جهة ثالثة استولى الفرنج على بيت المقدس سنة ٤٩٢ بعد حصار شديد ومذبحة هائلة .

بركيارق[١] وأخوه محمد[٢] .

وتختتم هذه اللمحة التاريخية بالتنويه بما كان للدولة السلاجقة فى المنطقة التى حكموها من العالم الإسلامى من أهمية خاصة . وكانت منطقة العواصم والثغور الواقعة تحت سيطرتهم والمتاخمة للروم هى الحدود التقليدية للخلافة الأموية والعباسية الأولى ، لا يتجاوزها المسلمون أو الروم إلا فيما عرف بالصوائف والشواتى من الغزوات المؤقتة ذات الهدف المحدد .

وتتمثل أهمية الفترة السلجوقية فى أن سلاطينها أول من كسر هذا الطوق التقليدى ، واقتحموا بلاد الروم فى آسية الصغرى ، وأقاموا ما عرف فى التاريخ بدولة سلاجقة الروم . وكان ذلك فى رأى بعض المؤرخين السبب المباشر للحملات الصليبية ، نتيجة لاستنجاد إمبراطور الروم بالغرب بسبب احتلال بعض بلاده .

ونرى أن نختم هذه الدراسة المختصرة بإيراد مصطلحات لا بد منها لدورانها فى ذلك الزمان ، ولضرورتها فى فهم تاريخ هذه الحقبة :

---

(١) هو السلطان المعظم ركن الدنيا والدين أبو المظفر بركيارق بن ملكشاه يمين أمير المؤمنين (راحة الصدور ص ١٤٢) . ولد سنة ٤٧٤ ، وتولى الملك سنة ٤٨٦ ، ومات سنة ٤٩٨ ، فكان عمره خمساً وعشرين سنة ، ومدة ملكه اثنتى عشرة ، ولى الأمر بتوصية والده بعد أن تخلص من منافسة أصغر إخوته محمود ، وشغل أكثر مدة ملكه بمنافسة أخيه محمد الآتى ذكره . وهكذا امتاز عهده بكثرة الحوادث بحيث أصبحت النوازل والكوارث لاتدخل فى عدأوحصر (انظر راحة الصدور ص ٢١٥ وابن الأثير ١٠ : ١٤٢ ، والوفيات ١ : ٢٦٨ - ٢٦٩) .

(٢) هو السلطان غياث الدنيا والدين أبو شجاع محمد بن ملكشاه قسيم أمير المؤمنين (راحة الصدور ص ١٤٣) . ولد سنة ٤٧٤ ، وتولى الملك سنة ٤٩٨ ومات بأصبهان آخر سنة ٥١١ ، فكان عمره سبعاً وثلاثين سنة ، ومدة ملكه ثلاث عشرة سنة . نازع الملك أخاه بركيارق نزاعاً دموياً شديداً ، واستقل به بعد وفاة أخيه . كان كما وصفه ابن خلكان « رجل الملوك السلجوقية ومحلهم » (انظر الوفيات ٥ : ٧٢ ، وراحة الصدور ص ٢٣٥ ، وأخبار الدولة السلجوقية ص ٨٢) . وقد مدحه شاعرنا بثلاث قصائد فى ديوانه .

الأتابك : الأمير الوالد . وهو اللقب الذى خلعه ملكشاه على نظام الملك ، وهو أول من لقب به ، ثم صار يطلق على قواد السلاجقة بمعنى مربى الملك .

المستوفى : استيفاء المملكة من أهم وظائف الدولة السلجوقية بعد الوزارة . ويقال لصاحبها المستوفى ، وله الأمور المالية .

الشحنة : محافظ المدينة والنائب عن السلطان فيها .

الطغرائى[1] : صاحب الطغراء وهى رئاسة الديوان ، ومن جملته ديوان الرسائل والإنشاء .

الأسفهسالار : أمير الجيش .

الدزدار : لفظ عجمى معناه : حافظ القلعة .

---

(١) بضم الطاء وسكون الغين وفتح الراء ، نسبة إلى من يكتب الطغرى ، وهى الطرة التى تكتب فى أعلى الكتب فوق البسملة بالقلم الغليظ ، ومضمونها نعوت الملك الذى صدر الكتاب فى عهده ، وهى كلمة أعجمية (انظر الوفيات ٢ : ١٩٠) . وقد ولى هذا المنصب فى زمن السلطان محمد ، الحسين بن على بن محمد الشاعر المعروف بالطغرائى .

الفصل الثانى

١

شعر العصر السلجوقى

نقصد بشعر العصر السلجوقى الذى نعقد له هذا الفصل ، دراسة بعض ملامح الشعر العربى فى زمان شاعرنا الأبيوردى ، وهو النصف الثانى من القرن الخامس ، وفى بيئته وهى العراق وأقطار الجبل . ويشتمل العراق فيما يشتمل — حسب تقسيمات العماد الأصبهانى للخريدة — على البصرة والكوفة والحلة وبغداد والأنبار ، وتشتمل بلاد العجم فيما تشتمل على الجبل وخراسان حتى ما وراء النهر . وقد ترد الجبل وفيها أصبهان فى كتب التاريخ على أنها العراق . وعلة اختيار هذه البيئة الجغرافية أن كثيراً من شعراء القرن الخامس — ومن بينهم شاعرنا — عاش فى هذه المنطقة وتنقل بين بلدانها .

انقضى عصر الشعر الذهبى الذى ختم بالشريف الرضى (ت ٤٠٦) ومهيار الديلمى (ت ٤٢٨) وجاء القرن الخامس فانقطع حبل الشعراء الكبار أمثال المتنبى والمعرى ، وغدا الشعر « صنعة » يمارسها كل من شدا شيئاً من المعرفة ، وجرى على ألسنة الفقهاء والمحدثين ومن إليهم ، وأدلى فيه بدلوه الخليفة ووزيره ، ووزير السلطان وحاشيته من الكتاب وأصحاب الدواوين وسواهم من النقاد والبلاغيين والنحويين . ونستثنى من وزراء السلاطين شاعراً نابغة هو الطغرائى وزير السلطان مسعود بن محمد . أما السلاطين أنفسهم فلم يؤثر عنهم شعر عربى بل لم يهد لهم من الأشعار ما أهدى لغيرهم لأنهم لم يكونوا يعرفون العربية ويفقهونها فى جملتهم .

وإنما قدمنا بهذا لنصور اهتمام مختلف طبقات علماء هذا العصر وأرباب الفكر فيه بالشعر ، دون أن نعده من صميم التيار الشعرى ، أو ندخله فى الحساب من تقويم شعراء هذا العصر ورصد أشعارهم . وقدمنا بهذه المقدمة أيضاً لنخلص منها إلى تناول الحركة الشعرية التى كان محورها الشعراء الذين تصدوا لهذا الفن فخلص لهم وخلصوا له . ومن الشعراء الذين عاصروا شاعرنا الأبيوردى معاصرة تامة أو جزئية صردر[١] (— ٤٦٥) ، والباخرزى[٢] (— ٤٦٧) ، وابن الهبارية[٣] (— ٥٠٤) ، والطغرائى[٤] (— ٥١٥) ،

---

(١) أبو منصور على بن الحسن بن على بن الفضل ، الكاتب المعروف والشاعر المشهور بصردر . كانت ولادته قبل الأربع مئة ، وله ديوان شعر صغير . انظر مقدمة الديوان (ز — ح) ، والوفيات ٣ : ٦٥ — ٦٦ .

(٢) أبو الحسن — وقيل أبو القاسم — على بن الحسن بن على بن أبى الطيب الباخرزى ، اشتغل فى شبابه بالفقه ، ثم غلب أدبه على فقهه . وقتل فى مجلس أنس بباخرز . صنف كتاب « دمية القصر وعصرة أهل العصر » وهو ذيل « يتيمة الدهر » للثعالبى ، وجمع فيه خلقاً كثيراً . ووضع أبو الحسن على بن زيد البيهقى ذيلا له سماه « وشاح الدمير » . انظر الوفيات ٣ : ٦٦ — ٦٨ ، ومعجم الأدباء ١٣ : ٣٣ — ٤٨ . حقق ديوانه محمد قاسم مصطفى فى رسالة جامعية محفوظة فى مكتبة جامعة القاهرة تحت رقم ٨٦٢ . وحقق الدمية سامى العانى فى رسالة محفوظة فى المكتبة نفسها تحت رقم ٦٤٩ .

(٣) أبو يعلى محمد بن صاخ المعروف بابن الهبارية . شاعر مجيد خبيث اللسان كثير الهجاء . لازم نظام الملك وله عليه الإنعام التام والإدرار المستمر . له ديوان شعر كبير ضاع أصله وطبع قسم منه فى الجريدة ، وكتاب « نتائج الفطنة فى نظم كليلة ودمنة » و « الصادح والباغم » وهو مجموعة أراجيز أهداها إلى أمير الحلة صدقة بن منصور . الوفيات ٤ : ٧٧ — ٨١ .

(٤) أبو إسماعيل الحسين بن على المعروف بالطغرائى . فاق أهل عصره بصنعة النظم والنثر ، وله ديوان شعر مطبوع . قدم إلى نظام الملك ثم أخلص لولده مؤيد الملك ، وتقلب فى مناصب كتابية كثيرة . ثم صار وزير السلطان مسعود بن محمد . وقتل بتهمة الإلحاد بعد تغلب السلطان محمود على أخيه ، مع اختلاف فى سنة الوفاة . اشتهر بلاميته المعروفة بلامية العجم . انظر الوفيات ١ : ٤٣٨ — ٤٤٢ .

والغزى[١] (— ٥٢٤) ، والأرجانى[٢] (— ٥٤٤) وغيرهم . وسنمثل بشعرهم لشعر العصر محاولين أن نتبين موضع شاعرنا بين أعلام شعراء عصره فى كل ظاهرة شعرية نرصدها وكل دلالة نقف عليها .

ولكى نكون صورة لمركز الشاعر المتخصص فى مجتمعه نذكر أن شعراء العصر جميعاً انزلقوا إلى مهاوى التكسب من طريق المدح على درجات مختلفة بينهم — فمدحوا من يستحق المدح ومن لا يستحقه وبالغوا فى ذلك مبالغات خيالية[٣] ، وتداولوا معانى المدح المشهورة من الشجاعة والكرم وربوبية السيف والقلم وحسن الرأى والتدبير ، وأمثلة ذلك كله واردة بكثرة فى دواوينهم ومظان أشعارهم . وإن كان الممدوح ذا نسب ومجد موروث رفعوه به كما فعل الأبيوردى فى مدحه لمؤيد الملك بن نظام الملك فقال:

وهل يلد الضرغام إلا شبيهَه ... وينجب إلا الأكرمون الأماثل

فليت أباً لا يُورِث الفخرَ عاقرٌ ... وأمّا إذا لم تُعْقِبِ المجدَ حائل[٤]

---

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن عثمان الغزى ولد بغزة ودخل دمشق ورحل إلى بغداد ثم إلى خراسان . وبعض شعره فى الخريدة — قسم شعراء الشام ص ٣ — ٧٥ . وديوانه مخطوط . وقد اختلط بعضه بشعر الأبيوردى فى ديوانه المطبوع . ترجمته فى الوفيات ١ : ٤١ — ٤٥ .

(٢) أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسين الأرجانى . ولد سنة ٤٦٠ ، وكان قاضياً . شعره من آخر عهد نظام الملك ، وما جمع هو جزء يسير منه . ويغلب عليه شعر الفقهاء لقوله :

أنا أشعر الفقهاء غير مدافع ... فى العصر أو أنا أفقه الشعراء

الوفيات ١ : ١٣٤ - ١٣٨ .

(٣) كقول الطغرائى فى مدح أحد السلاطين (ديوانه ص ٣) :

لجلال قدرك تخضع الأقدار ... وبيمن جدك تحكم المقدار

ولك البسيطة حيث مد غطاءه ... ليل وما كشف الغطاء نهار

تعطى وتمنع من تشاء بإذنه ... وبكفك الأرزاق والأعمال

(٤) الديوان — البيت ٥ ، ٦ من القصيدة ٣٥ .

وإن كان غير ذلك فخروا بعصاميته كما قال الغزى :

نال العـــــلا كسباً وليـ
ـس لواجـــد العلياءِ فخـــر[١]

وخضعت أشعارهم لقوانين العرض والطلب ورواج البضاعة وكسادها : يقول مرد :

ولست أُرخص أقـــوالى لسائمقها
إلا عليك ، وللأشعار أسعـــار[٢]

ويقول الغزى :

قالوا : هجرتَ الشعر ؟ قلت : ضرورة
باب الـــدواعى والبواعث مغلـــق
خَلَتِ الديـــار فلا كـــريمٌ يُرتجى
منـــه النوال ولا مليحٌ يُعشـــق
ومن العجائب أنـــه لا يُشترى
ويخان فيـــه مع الكساد ويسرق[٣]

وفى محاولة جلاء ملامح شعر هذه الفترة اخترنا بعض السمات الشعرية لنستنتج فى ضوء الأمثلة التى نضربها من شعر الشعراء بعض خصائص هذا الشعر ومزاياه .

---

(١) ديوان الأبيوردى المطبوع ص ١٦٤ .
(٢) ديوانه ص ٥٠
(٣) الوفيات ١ : ٤١ - ٤٢ .

٢

وحدة القصيدة

قامت القصيدة منذ العصر الجاهلى على وحدة بيت أو أبيات منها ، وكانت معرضاً لموضوعات مختلفة لا صلة بينها ولا رابطة تجمع أجزاءها . وكان الشعر وسيلة لإثبات المهارة الشعرية دون النظر إلى وحدة الفكرة أو المعنى ، حتى صار يحكم على شاعرية الشاعر ببيت له سموه بيت القصيدة .

وورث شعراء العصور الأموية والعباسية هذا التقليد الشعرى ، فبدءوا بالوقوف على الطلول والديار والنسيب (وذكروا فى النسيب البين والتحمل وشيم البرق وهبوب النسيم ، وتداولوا معانى الصدود والهجر والوشاة والرقباء ووصفوا أعضاء المرأة) واستطردوا إلى وصف الراحلة والرحلة والصحراء ، وخلصوا إلى غرض القصيدة الأساسى من الفخر أو المدح أو الاعتذار . . مما لا صلة له بكل ما سبق ، وختموها بالحكم والأمثال والدعاء . وما صدروا فى ذلك كله عن تجربة ذاتية ، لأن أحدهم ربما نظم القصيدة بكل أجزائها وهو فى مكانه لا يريم .

وبين أيدينا دواوين شعراء هذا العصر تثبت ذلك وتدل عليه بوضوح ، فأكثر قصائد الشعراء نحت هذا المنحى وسلكت هذا المسلك . ويمكن الرجوع بسهولة إلى ديوان شاعرنا الأبيوردى والنظر فى أية مدحية أو فخرية فيه ، والوقوف على أقسامها وموضوعاتها المختلفة . ففى إحدى القصائد التى مدح فيها الخليفة المقتدى (القصيدة ١١ من الديوان) استهل القول بوصف نفسه وفرسه (الأبيات ١ — ٣) ، وانتقل إلى زيارة صاحبته ووصف منعة دارها وقوة حراسها وعفته فى لقائها (٤—٨) ، وجعل يذكر مشاق السفر ووصف راحلته والرواحل الأخرى (٩ — ١٦) ، ثم خلص إلى مدح الخليفة (١٧ — ٢٣) ، وختم بأن شاب المدح بالفخر بنفسه (٢٤ — ٢٧) . ومن ذلك يبدو

أن مدح الخليفة الذى نظمت القصيدة له كان نصيبه أقل الأنصبة بالنسبة إلى مجموع أبيات القصيدة[١] .

ومع افتقار النظم فى أكثره إلى وحدة القصيدة ، فإننا نجد هذه الوحدة فى بعض قصائد العصر الذى نعالجه ومقطعاته ، فلو رجعنا إلى قصائد الشكوى والفخر وبعض قصائد المديح فى ديوان الأبيوردى ، وقفنا على وحدة الموضوع على رغم تعدد زوايا الرؤية وتشعب نواحى المعالجة . ففى إحدى القصائد يلتزم الشاعر فى كل قصيدته ما جاء فى ديباجته[٢] من ذم الناس وذكر فساد الأجيال (الأبيات ١ — ٨) والفخر بنفسه وقومه (٩ — ٣٠) . ولو نظرنا فى ديوان الطغرائى فى القصيدة التى يفتخر بها[٣] ، والقصيدة التى يرثى بها زوجته[٤] ، لمسنا الحقيقة ذاتها وهى أن الشاعر يطرق موضوعه بلا مقدمات ، ويحافظ على وحدة القصيدة فى نطاق المفهوم الذى ذكرناه .

---

(١) انظر فى مثل ذلك مدحية للغزى من شعره الذى اختلط بديوانه الأبيوردى المطبوع (ص ٢٣٠ — ٢٣١) ، فللمدح منها خمسة عشر بيتاً من أبيات القصيدة البالغة أربعة وثلاثين ، والمطلع :

كم ذا التجانف والصدود فراق أأمنت أن يتذمم العشاق

(٢) القصيدة ٣٩ من الديوان . وديباجتها « وقال يفخر بقومه ويذكر أهل زمانه وما هم عليه من ذميم الطرائق وقبيح الخلائق » . وفى ضوء التعدد والتشعب الذى ذكرناه لا يرى الشاعر مانعاً — فى وصف قومه بالشجاعة — أن يستطرد إلى وصف المعارك والخيول التى يخوضونها بها (الأبيات ١٣ — ٢٠) .

(٣) ديوان الطغرائى ص ٥٩ . ومطلع القصيدة :

أبى الله أن أسمو بغير فضائلى إذا ما سما بالمال كل مسود

(٤) الديوان نفسه ص ٨١ — ٨٢ . ومطلع مرثيته :

أقول وقد غال الردى من أحبه ومن ذا الذى يعدى على نوب الدهر

٣

الصياغة الشعرية

إن صعوبة نظم الشعر آتية من صياغته هى الجسم الذى يعبر عما فيه من روح هو المعانى والأفكار ، والألفاظ التى تستخدم فى الصياغة رموز مبهمة لا تحدد مدلولات معينة ، ولا تدل على أشياء حسية أو معنوية بذواتها ، فأى لفظ حسى يستغرق كل أشخاص جنس ذلك اللفظ . أما الأحوال المعنوية التى يعبر عنها باللفظ فهى أولى بأن تكون أشد إبهاماً ، لأنها تصور أحوالا نفسية غير محسوسة . ونتيجة ذلك أن الشاعر المجيد وحده هو الذى يرزق حسن التعبير . ولشعرنا العربى من الشعراء من يمده عبر الأجيال بقوة الاستمرار ، فكلما خبا نوره فى عصر جاء من جلا ظلامه وأحيا مواته . وحركات التجديد فى الشعر العباسى قائمة بذلك شاهدة عليه .

ويكتسب التجديد فى الألفاظ والأساليب من علم غزير باللغة ومفرداتها وطرائق استعمالها وأنماط صناعة القول فيها . لذا وجدنا الشعراء يحاولون صقل لغتهم وتقويم ألسنتهم حتى قال الأبيوردى : « كنت ببغداد عشرين سنة حتى أمرن طبعى على العربية »[1] ووجدناهم على علم واسع باللغة ومفرداتها حتى قادهم غنى ثرواتهم اللفظية إلى الإغراب . ومنه أرجوزة الأبيوردى التى مطلعها :

الفجـــــر يا سعد بنى معـــــاذ

فالشهب فى مسبحهـــا جواز[2]

وأكثر ما كان يكون الإغراب فى المديح الذى يقصد فيه إلى التفخيم

---

(١) معجم الأدباء ١٧ : ٢٤٤ ، والإنباه ٣ : ٥١ .

(٢) الديوان – القصيدة ٨١ . ولم نخل بيت منها من كلمة غريبة أو أكثر .

قصداً . وأقل من ذلك وجوده فى الغزل والرثاء حيث تترك النفس على سجيتها وتنطلق معبرة عن مكنوناتها دون تصنع أو زيف . وأمثلة المديح الفخم المعرب كثيرة تذكر منها قول الغزى فى مدح أحد بنى بويه :

إن شاءَ هَمْلَجَ بى جـــواد سابق
كالنجـــــم يطلع ثانياً ويغور
قلق العنان كـــأَنَّ فـــوق تليله
نمـــلاً وبين سميعَتَيْه صفير
هـــو جنةٌ للناظـــرين إذا مشى
أَما إذا ما جاش فهـــو سعير
لو قيـــل ثِبْ ، وثبيرُ معترضٌ له
ليـــتمّ حُضـــرك ما ثناه ثبير[1]

ومما رثى به الطغرائى زوجته وعبر فيه عن مشاعره قوله :

ولم أَنسها والمـــــوت يقبض كفها
ويبسطها ، والعين ترنو وتطـــرق
وقـــد دمعت أَجفانها فوق خدها
جنى نرجسٍ فيه الندى يترقرق

---

(١) من شعر الغزى المختلط بديوان الأبيوردى المطبوع ص ١٦٣ .

وحـــلّ من المقـــدور ما كنت أتقى

وحُـــمّ من المحذور ما كنت أفْرَق (١)

وكذلك وجدنا الشعراء يكثرون من استعمال مفردات البادية وينقلون قراءهم إلى بيئتها أو ينقلون تلك البيئة إلى دواوينهم ، فيعرضون فى أشعارهم للعيس والحى والظعن . . ويكثرون فيها من ذكر مواضع بأعينها كالعقيق واللوى والعذيب . . ويقول قائلهم فى ذلك :

ما فوق أَعجاز الركاب رسالـــــة

تلهى ، ففيم تحيـــة الركبان ؟

عـــذرا فلو علمـــوا جواك لساءلوا

غـــزلانَ وجـــرةَ عن غصون ألبان

قُـــولا لكُثبان العقيق : تطـــاولى

دون الحمى أَقْـــدُرْك بالطَّمَحـــان

عَجِـــلَ الفريق وكل طَرْفٍ إِثْرَهم

متعثّـــر اللحظـــات بالأَظعان (٢)

ويرددون فى أشعارهم أسماء نباتات البادية وأشجارها حتّى تفوح منها رائحة الشيح والأراك والرند . . والمحقق أن هؤلاء الشعراء لم يعرفوا تلك النباتات ولم يروا تلك الأماكن أو يقيموا فيها ، وأنهم سلكوها فى أشعارهم على سبيل التقليد والمتابعة .

---

(١) ديوان الطغرائى ص ٨٢ .

(٢) ديوان صردر ص ٧ .

ووجدنا من شعراء العصر من بعث فى الشعر الحياة وألبسه حللا جديدة من اللفظ الجزل والعبارات الفصيحة وأساليب التعبير الأصيلة . فالأبيوردى فى أشعاره يسلك فى القول مسلك الفصحاء ويأخذ بأساليبهم الرفيعة . نقرأ مثلا فى تفسير قوله فى الغزل :

فلا استهال الهوى عينى وإن جمحتْ
عنها ، ولا افتراش الواشى بها أُذنى[1]

« هذا أحسن ما قيل فى استمراره على سجيته فى متابعة الهوى ومعاصاة العاذل . وقوله : « افترش الواشى أذنى » و «جمحت عينى » لفظتان مقبولتان معسولتان ! ».

ونقرأ فى تفسير قوله :

وإن سرى بارق من أرضها طمحت
عين تُقلّص جفنيها عن الوسن[2]

« ما أحسن هذا اللفظ ! والتقليص ها هنا مستعار وقلما يتفوه به إلا فصيح. والمعنى أن جفنه يقصر فلا يلتقيان للنوم » . وتطالعنا فى ديوان الأبيوردى كثير من الكلمات القاموسية الفصيحة التى لا تخلو منها قصيدة . ولقد صدق حين وصف شعره بقوله :

---

(١) الديوان – البيت ٦ من القصيدة ٣٢ .
(٢) البيت ٩ من القصيدة نفسها .

وقوافٍ مُلسِ المتون شداد ال
ـأسر غرٌّ مصقولةِ الأَطراف(١)

وحين ذكر خصائصه الأسلوبية بقوله :

كلماتى قلائد الأعناق
سوف تفنى الدهور وَهْى بواق
فقريضى يراه من ينقد الأَشْ
عار سهل المرام صعب المراقى
لم يَشِنْهُ المعنى العويص ولا لف
ظٌ يكدّ الأَسماع مرّ المذاق
وهو فى منجم الفصاحة من فر
عَيْ نزارٍ مقابل الأَعراق(٢)

وكما غلبت على شعر الأبيوردى الأساليب الرصينة والتعابير الرشيقة ، غلبت المتانة على تراكيب صردر والطغرائى غلبة الركاكة على كثير من شعر الغزى والباخرزى والأرجانى ، حتى وصلت بساطة التعبير عندهم إلى ما يشبه النثر والكلام المتداول ،وأى لفظ مليح أو معنى طريف فى مثل قول الباخرزى فى شدة البرد :

---

(١) الديوان - مطلع القصيدة ١٢٥ .
(٢) الديوان - الأبيات ١ ، ٣ ، ٤ ، ٥ من القصيدة ٢٠٧ .

كم مؤمن قـــرصته أظفـــار الشتا
فغـــدا لسكّان الجحيم حسودا
وإذا رميتَ بفضل كأْسك فى الهوا
عادت عليك من العقيق عقـــودا
يا صاحب العُودين لا تَهْمِلْهمـــــا
حـــرّك لنـــا عوداً وحرّق عودا[1]

٤

التصوير

تقدم أن فى ألفاظ اللغة ومفرداتها قصوراً من الإفصاح عما فى ذهن الشاعر أو الكاتب من أفكار ومعان لأنها رموز لا تؤدى المعانى أداء كاملا . وهذا الغموض والإبهام الذى يعترى معانى الشعر دفع الشاعر إلى الاستعانة بما يفصح به عن نفسه ، فلجأ إلى الصور المجازية وما فيها من تشبيهات وكفايات واستعارات لتفسير الأحاسيس الغامضة وجلاء المعانى الغائمة .

وقد ورث شعراء العصر فى جملة التركة الشعرية التى ورثوها معانى الشعر وألوانه البلاغية المعروفة . ولم تكتف جمهرة الشعراء بتداول المعروف المسموع من صور البيان مثل تشبيه الجود بالبحر ، والشجاع بالأسد ، وجمال المحيا بالبدر . . كقول الغزى فى المدح :

---

(١) وفيات الأعيان ٣ : ٦٧ ، و معجم الأدباء ١٣ : ٣٧ . ويراد بالعود الأول عود الحطب وبالثانى عود آلة السماع .

محيّـــاك بـــدر والملوك كواكب
وكفّك بحر والأكف جـــــداول
وميدانك الفضـــل الفسيح بجالـه
وصيدك آساد الثرى والأجـــادل[1]
وخيلك ينعلن الأهلّـــــة فى السّرى
لأنّ الدرارى تحتهـــن جنادل !

بل أسفوا فيها فاستحالت على أيديهم صوراً شوهاء لا طائل تحتها كقول الباخرزى :

وإنى لأشكـــو لسع أصـــداغك التى
عقاربهـــــا فى وجنتيك تحوم
وأبكى لـــدرّ الثغر منك ولى أب
فكيف يديم الضحك وهـــو يتيم؟![2]

وكانت محاولات التجديد فى المعانى والصور ضئيلة محدودة . ومن هذه المحاولات ما أوتيه الأبيوردى من القدرة على تطوير المعانى المتداولة وتوليد صور جديدة لها ، وترصيع ديوانه بديباجات مشرقة تشير إلى موهبته الشعرية ونزعته المتميزة[3]. فى مدحه الوزير مؤيد الملك بن نظام الملك أشاد بشجاعة رجاله فى صور لطيفة منها قوله :

---

(١) من شعر الغزى المختلط بديوان الأبيوردى المطبوع ٢٧٨ .

(٢) الوفيات ٣ : ٦٧ .

(٣) انظر مثلا الأبيات ٥ – ١٤ من القصيدة ٣٦ من الديوان ، ففيها مجموعة من رائق التشابه وبديع الاستعارات . وانظر أيضاً الصورة الشعرية ، عند الأبيوردى ، فى الباب الثالث من هذه الدراسة .

وأبطـــالٍ كـــآسادٍ تمطَّـــــتْ
كـــذؤبـــان الـــرّادهِ بهم جياد

تخالهـــــم أراقم فـــى دروع
أ تحـــدّق من مطاويها الجـــراد

إذا دلفـــوا إلى الهيجـــاءِ عفَّت
على الأعـــداءِ داهيـــة نـآد

بيـــوم كاد من قـــرم إليهم
تلمّظ فى حـــواشيه الصِّعـــاد[1]

فشبه أرخاء الفرس بأرخاء الذئب فجمع بين الجياد والآساد والذئاب ، وانتقل إلى تشبيه مسامير الدروع بعيون الجراد ، ثم تناول بتعبير رشيق نفورهم إلى الهيجاء فعبر عنه بدلفهم إليها ، وعن التغلب على الأعداء بالتعفية عليهم بالداهية النآد . وجسم فجعل من يوم المعركة مخلوقاً شديد الشهوة للحم ، واستعار للصعاد التلمظ للتعبير عن الإيغال فى القتل والإمعان فيه .

وقد نجد عند كثير من الشعراء كثيراً من اللوحات دون إبداع جديد من المعانى أو بديع من الصور . وبين أيدينا لوحة رسمها الطغرائى فى مدح الوزير المذكور ، فيها :

غلائله أدراعـــه ، وكـــؤوسه
قحـــوف عداه ، والنجيع شَمول

---

(١) الأبيات ٢٨ – ٣١ من القصيدة ٦٢ .

لـــه هيبةً تسرى أمام جنـــوده
ورأىٌ بمتنٍ فى الغيـــوب يجول
وجـــــردٌ على أكتافها المرد ، حولها
فحـــول على أكتادهن كهول[1]

وما آتى الشاعر بما يلفت النظر ، فصورته « غلائله أدراعه » فى منتهى البساطة والتداول ، والصورة التى مثل فيها لشجاعة الممدوح بولغه من دماء الأعداء — على رغم أنها معروفة وقديمة — لا ترتاح إليها النفس لأنها تقتضى التمثيل بجثث الأعداء ، وهو ما يأباه خلق المحارب الأصيل وانتقاله فى البيت التالى إلى ذكر هيبته وجودة رأيه ، نقلة غير متدرجة ولا منطقية لاختلاف الجو النفسى للبيتين اختلافاً بيناً وأسوأ منه جمعه بعد ، بين المرد المحاربين على ظهور الخيل — وهم الذين يمثلون القوة — والكهول المرافقين على ظهور الفحول — وهم الذين يمثلون التعقل والاتزان — ولا معنى للجمع بينهما فيما نرى .

أولع الشعراء بالمحسنات اللفظية من طباق وجناس وما إليهما . وكان ذلك ذوق العصر ، ومقياس إجادة القول ، وناهيك بمقامات الحريرى وما فيها من شعر مثقل بالصنعة البديعة . ولم يكن احتفال الشعراء بالصنعة واحداً ، فقد استهوت الغزى مثلا أكثر من استهوائها الأبيوردى ، لذا أمكن تمييز شعر الغزى المختلط بشعر الأبيوردى فى ديوانه المطبوع عن طريق هذه الصنعة . فإذا قرأنا مثلا هذا المطلع :

---

(١) ديوان الطغرائى ص ٢٠ .

ى ينجــلى ليل الظنون الكواذب
ويبــدو صباح الصدق من حدّ قاضب(١)

أو هذين البيتين :

قم نَفْتَرِعْهــا كأَنهــا الذهب
بكـــراً أَبوها وأُمهــا العنب
أَرقّ من عَبْــرة اليتيـــم ومن
عبـــارة الصّب قلبُـــه وصب(٢)

أدركنا بيسر أنها من شعر الغزى المقحم على ديوان الأبيوردى لغلبة الصنعة عليها :

وقد راجت سوق الألوان البديعية المختلفة وازدهرت . ونكتفى بالتمثيل بأبيات الباخرزى لهذه الصناعة الرائجة :

إنسان عينى قط ما يرتــــدى
من ماء وجهٍ مَلُحَتْ عينــه
كذلك الإنسان ما يرتـــوى
من شُرب ماءٍ مَلُحَتْ عينه(٣)

---

(١) ديوان الأبيوردى المطبوع ص ٣٥ .
(٢) المرجع نفسه ص ٣٨ .
(٣) معجم الأدباء ١٣ : ٣٨ .

٥

الأوزان والقوافى

التزم الشعراء النظم على القوافى المعروفة ولم يخالفوا عن ذلك ، ونظموا على حروف الهجاء كلها ، المتداول والصالح منها للقافية كالدال والراء والباء والنون والميم ، وغير المستعمل لها كالخاء والشين والضاد والطاء . . وكان أكثر ما ينظم من غير المألوف من القوافى فى المعارضات الشعرية أو بناء على « اقتراح الوزن والقافية »[١] على الشاعر . ويبدو أن هذا النوع من النظم إنما كان يقصد إليه لإظهار البراعة فى القول وركوب مركب القوافى الخشنة الصعبة كان يستهدف إثبات القدرة اللغوية والنفس الطويل . ولا يخفى ما فى ذلك من اللجوء إلى استعمال وحشى الألفاظ وغريبها . ومن ذلك طائية الأبيوردى التى نظمها فى ستة وأربعين بيتاً واستهلها بقوله :

يدا ، والثريا فى مغاربها قرط
بريق شجانى ، والدجى لمم شمط[٢]

وعرف النظم على الرباعيات ، لكن اشتهر بالنظم بها شعراء الفارسية كعمر الخيام ، ولم يظهر لها أثر فى أشهر دواوين العصر كديوان صردر والطغرائى والأبيوردى .

ولعل التجديد الوحيد فى شكل القصيدة العربية هو النظم على أكثر من قافية واحدة ، فقد مدح الطغرائى الوزير نظام الملك بأبيات لطيفة على قافيتين ، منها :

---

(١) انظر بعض أمثلة ذلك فى ديوان الأبيوردى فى ديباجات القصائد : ٢٧ ، ٥١ ، ٥٦ ، ٩٣ .

(٢) الديوان – القصيدة ٩ .

يا أيها المولى الذى اصطنع الورى شرقاً وغربـا
والمستعان على الزمان إذا اعترى وأجـدّ حربا
أقسمت بالبزل النوافخ فى البرى قوداً وقبّـا
واصلن نحو البيت بالسير السرى يحملن ركبـا
يرضيهمُ بعد الصدى ورد الصرى رفها وغبـا
لقد ابتنيتَ الملك مرفوع الذرا بك مستتبـا
وتركتَ دين الله مشدود العرا بُعْداً وقربـا
وضمنتَ للدنيا وما فيها القِرى وكشفت جدبا[1]

ونظم الحريرى فى إحدى مقاماته أبياناً على ثلاث قواف منها :

يا خاطب الدنيـا الدنيّـة إنها
شرك الردى وقرارة الأكدار
دارٌ متى ما أضحكتْ فى يومها
أبكتْ غداً بُعداً لهامن درا

---

(١) ديوان الطغرائى ص ١٥ .

وإذا أظـــل سحابهـــا لم ينتفع
منه صدى لجهامه الغرّار[1]

ونظم الشعراء على أوزان البحور المختلفة ، وأثروا بعض البحور الشائعة على بعضها الآخر ، فأكثروا النظم على البحر الطويل والبسيط والكامل وأقلوا منه على الخفيف والسريع والمتقارب وسائر البحور . واستخدموا أوزان البحور المجزوءة والتامة على السواء . ونظموا على أوزان الرجز — زيادة على الأراجيز — الشعر التعليمى بأنواعه ، فقد نظم الحريرى قصيدة فى النحو . ونظم الطغرائى شعراً فى الكيمياء — وكان إماماً فى هذه الصنعة — وخصه ابن الهبارية بكتابين فى الأسلوب القصصى والشعر الاجتماعى .

٦

راجت سوق الشعر رواجاً كبيراً ، وكان من أسباب رواجها تقريب الخلفاء والوزراء للشعراء . ونظم الشعر فى مختلف الأغراض المعروفة ، وكان أكثر ما قيل فى المديح والفخر . أما الأول فللتقرب من الحاكمين والمتنفذين ونيل أعطياتهم ، وأما الآخر فللتعبير عن المطامح والآمال والشكوى مما يعترض تحقيقها .

وكانت لغة الشعر عامة فصيحة مع ميل إلى الإغراب أحياناً . وظلت معانى الشعر تدور فى فلكها ولم تخرج عنه إلا قليلا .

وازدهر الشعر التعليمى فى هذا العصر . ومما نلحظه من ذلك الأرجوزة النحوية التى نظمها الحريرى صاحب المقامات وسماها « ملحة الإعراب » وقد وصلت إلينا مع شرحها الذى وضعه ناظمها نفسه[2] . وأهم ما فى هذا

---

(١) المقامة الشعرية — مقامات الحريرى ٢٢٣ — ٢٢٤ ، وأصل الأبيات :

يا خاطب الدنيا الدنية إنها شرك الردى وقرارة الأكدار

ويمكن أن تقرأ على أشكال أخرى منها :

يا خاطب الدنيا الدنية إنها شرك الردى وقرارة الأكدار

ومنها : يا خاطب الدنيا الدنية إنها شرك الردى

(٢) انظر الشعر العربى ٢ : ١٥٢ — ١٦٤ .

الباب الكتابان اللذان نظمهما ابن الهبارية وهما : « نتائج الفطنة فى نظم كليلة ودمنة » وقدمه إلى مجد الملك أحد وزراء السلطان بركيارق ، و « الصادح والباغم » وهو مجموعة أراجيز نظمت على أسلوب الكتاب السابق وسيرت إلى صدقة بن منصور صاحب الحلة المزيدية .

وفى الجملة ازدان العصر — على كثرة شعرائه وتعدد مشاربهم — بعدد من بقايا الفصاح ممن حملوا راية الشعر وأسلموها إلى من بعدهم .

الباب الثانى

الأديب

الفصل الأول : مراجع ترجمته

١ — تمهيد

٢ — مراجع ترجمة الأديب

الفصل الثانى : ترجمته

١ — اسمه ونسبه

٢ — لقبه ونسبته

٣ — مولده : المكان والزمان

٤ — شيوخه وتلاميذه

٥ — ثقافته ومعارفه

٦ — آثاره

٧ — صفته وأخلاقه ومعتقده

٨ — حياته : الأطوار والتنقلات والأحمال

٩ — وفاته

الفصل الأول

مراجع ترجمة الأديب

١

تمهيد

من الشعراء من شعره ترجمة ذاتية لحياته ، ومستودع لأحاسيسه ومشاعره ، وسجل للتعريف بنسبه وقومه ومجتمعه وما يمثله هذا المجتمع من قيم واتجاهات[١] ، وتأريخ لأحداث الحياة من حوله .

وشاعرنا الذى نتحدث عنه يعكس ديوانه صورة حياته وواقعه الفردى والاجتماعى فى العصر الذى عاش فيه : النصف الثانى من القرن الخامس ، فقد فخر فى ديوانه بنفسه[٢] ونسبه[٣] وشعره[٤] ، وسجل خلجاته النفسية ومطامحه الواسعة وتطلعاته العريضة[٥] ، وأنبأنا عما تعرض له من بؤس وشقاء[٦] ،وسجل لنا تفاصيل صغيرة من خصوصيات حياته[٧] ، وأطلعنا

---

(١) ومن هنا قيل : الشعر ديوان العرب ، لأنهم يرجعون إليه عند اختلافهم كما يرجع أهل الديوان إلى ديوانهم إذا اشتبه عليهم شيء . انظر مقدمة العراقيات – الديوان .

(٢) انظر مثلا القصائد ٣٦ ، ١٢٢ ، ٢٠٥ من الديوان .

(٣) انظر مثلا القصائد ١٧٣ ، ٢٢٩ ، ٢٣٨ .

(٤) انظر مثلا القصائد ١٢٥ ، ٢٠٧ ، ٢٤٣ .

(٥) انظر مثلا القصائد ١٤٥ ، ١٧٠ ، ١٩٢ .

(٦) مثل احتمائه بأحد الوزراء من بطش الآخرين (الديوان – القصيدة ٣٥) ، ومفارقة وطنه لما حاق به من اضطهاد وظلم (الديوان – القصيدة ٣٠) .

(٧) كطلبه من الخلافة داراً يسكنها (الديوان–القصيدة ٩٧) ، وذكر رمد عينه (الديوان – القصيدة ١٢٨) . .

على صلاته بعائلته والروابط التى تشده إلى أعضائها[١] . وبعد ذلك كله أرخ لبعض الأحداث السياسية فى عصره[٢] .

إذاً سنحاول فى التعريف بالشاعر والترجمة له أن نتخذ من ديوان شعره وثيقة نستثيرها فى جلاء ما غمض من جوانب حياته وأخلاقه ، فديوانه سجل حافل لحياته بما فيها من مباهج ومآس وعسر ويسر ، ووثيقة تفصح عن علاقاته بالأمراء والوزراء والحاكمين والأقارب والأصدقاء ، فضلا عن كون هذا الديوان سجلا تاريخياً دونت فيه الأحداث السياسية التى جرت فى ذلك العصر . ومن هنا تبدو أهمية الديوان فى إظهار سيرة صاحبه بصورة صحيحة وموثوقة .

٢

مراجع ترجمة الأديب

حين بدأت جمع مراجع حياة الأبيوردى ، وجدت نفسى أمام مجموعة ضخمة من الكتب التى أرخت له ، امتدت عبر القرون منذ حوالى منتصف القرن الهجرى السادس إلى أواخر هذا القرن الرابع عشر . واستخلصت من استعراض هذه المراجع ودراستها الملاحظات التالية :

(أ) تناولت المراجع ترجمة الشاعر والتعريف به تناولا متفاوتاً من حيث الاختصار والتفصيل . وبلغ من أمر هذا التفاوت أن استغرقت أطول ترجمة له — وهى ترجمته فى معجم الأدباء — اثنتين وثلاثين صفحة[٣] . ، واقتصر ذكره فى بعض الكتب الأخرى — كما فى تاريخ الخلفاء — على كلمات فقط[٤] .

---

(١) فمرة يمدح والده (الديوان — القصيدة ٩١) ، وأخرى يكتب إلى بعض أقاربه (الديوان — القصيدة ٥٣) ، ومرات يفخر بقومه (الديوان — القصائد ٣٩ ، ١٣٧ ، ١٤٣) .

(٢) فمدح الخليفة حين توليته (الديوان — القصيدة ١٢) ، وذكر انتصار أحد السلاطين على أخيه (الديوان — القصيدة ٦٢) . .

(٣) معجم الأدباء ١٧ : ٢٣٤ — ٢٦٦ .

(٤) تاريخ الخلفاء ص ١٧٣ .

وبين هذا الإسهاب والاختصار اكتفت بعض المراجع بإيراد شيء من شعره كما فعل صاحب نهاية الأرب .

(ب) ورد ذكر الشاعر الأديب فى عدد من المعاجم والموسوعات والفهارس . وذكرتها منفصلة عن كتب التراجم لأنها فى الحقيقة لا تترجم للشاعر كما تترجم له المراجع الأصلية ، ولأن لها هذه الصبغة الخاصة فى كونها مفاتيح تدل على المراجع وتشير إليها .

(ح) من الواضح أن بعض المراجع المتأخرة نقلت عن المتقدمة وتفاوت ذلك بين الأخذ والنقل الحرفى ، فقد نقل عن وفيات الأعيان صاحب شذرات الذهب ومرآة الجنان والوافى بالوفيات . ونقل بعض ما أورده ابن الجوزى فى المنتظم مجموعة من التصانيف التى وضعت بعده كالوفيات ومعجم الأدباء واللباب والنجوم الزاهرة وإنباه الرواة ومرآة الزمان والبداية والنهاية والشذرات والوافى بالوفيات . كما نقلت بعض الكتب عن أكثر من مرجع ، فصاحب الشذرات نقل عن الذهبى فى العبر ، وابن خلكان فى الوفيات ، والسمعانى فى الأنساب .

والخلاصة أن أكثر المراجع المتأخرة لم يضف شيئاً على ما أوردته المراجع المتقدمة وهذه هى مراجع ترجمة الأبيوردى مرتبة حسب تواريخ وفاة أصحابها ، ومشار إلى مواضع ترجمته فيها :

(أ) كتب التراجم :

الأنساب للسمعانى (ت٥٦٢) — مخطوط — « المعاوى » .
المنتظم لابن الجوزى (ت٥٩٧) ٩ : ١٧٦ — ١٧٧ .
الخريدة للعماد الأصبهانى (ت٥٩٧) قسم شعراء العراق
(» ») ١ : ١٠٦ — ١٠٧، ٢ : ١٥٧ .
معجم الأدباء لياقوت (ت٦٢٦) ١٧ : ٢٣٤ — ٢٦٦ .
الكامل لابن الأثير (ت٦٣٠) ١٠ : ٤٧ — ٤٨ [1]، ٥١، ١٨٨،
اللباب لابن الأثير (» ») ٣ : ٥٨ ، ١٥٤ — ١٥٥ .
إنباه الرواة للقفطى [2] (ت٦٤٦) ٣ : ٤٩ — ٥٢ .
مرآة الزمان لسبط ابن الجوزى (ت٦٥٤) ٨ : ٤٨ .
مختصر أخبار الخلفاء لابن
السباعى البغدادى (ت٦٧٤) ٩٣ — ٩٤ .
وفيات الأعيان لابن خلكان (ت٦٨١) ٤ : ٤٤٤ — ٤٤٩ .
تاريخ أبى الفدا (ت٧٣٢) ٢ : ٢٣٨ .
نهاية الأرب للنويرى (ت٧٣٣) ٥ : ٢٢٣ — ٢٢٤ .
العبر فى خبر من غبر للذهبى (ت٧٤٨) ٤ : ١٤ .
سير النبلاء للذهبى — مخطوط — ١٢ : ٦٥—٦٧

---

(١) انظر حاشية ديباجة القصيدة ٥٩ من الديوان .

(٢) غلط محقق الإنباه ٣ : ٤٩ حين ذكر من مراجع ترجمة الأبيوردى « الفلاكة والمفلوكين » — وهو اسم فارسى معناه الفقر والفقراء — لأن الأبيوردى المذكور فى هذا الكتاب (ص ٦٦) هو أحمد بن عبد الرحمن الأبيوردى الفقيه المتوفى سنة ٤٢٥ ، لا محمد بن أحمد الأبيوردى الشاعر المتوفى سنة ٥٠٧ .

تاريخ ابن الوردى	(ت٧٥٠)	٢٣ .
الوافى بالوفيات للصفدى	(ت٧٦٤)	٢ : ٩١ – ٩٣ .
مرآة الجنان لليافعى	(ت٧٦٨)	٣ : ١٩٦ .
طبقات الشافعية للسبكى	(ت٧٧١)	٤ : ٦٢ – ٦٣ .
البداية والنهاية لابن كثير	(ت٧٧٤)	١٢ : ١٧٦ .
النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى	(ت٨٧٤)	٥ : ٢٠٦ – ٢٠٧ .
بغية الوعاة للسيوطى	(ت٩١١)	٤٠ – ٤١ .
تاريخ الخلفاء للسيوطى	(« »)	ص ١٧١ ، ١٧٣ .
شذرات الذهب لابن العماد	(ت١٠٣٢)	٤ : ١٨ – ٢٠ .
روضات الجنات للخوانسارى	(ت١٣١٣)	٦٢٤ .
أعيان الشيعة للعاملى	(ت١٣٧١)	٤٣ : ٢٦١ – ٢٦٢ .
مصفى المقال لآغا برزك	(كان حياً ١٣٦٧)	٣٨٩ – ٣٩٠ .

(ب) المعاجم والمجلات :

معجم البلدان لياقوت	(ت٦٢٦)	« كوفن – أبيورد » .
هدية العارفين للبغدادى	(ت١٣٣٩)	٢ : ٨١ – ٨٢ .
الأعلام للزركلى		٦ : ٢٠٩ .
معجم المؤلفين لعمر كحالة		٨ : ٣١٤ .
دائرة المعارف الإسلامية		١ : ٧٠ .
معجم المطبوعات العربية لسركيس		١ : ٣٦٢

كشف الظنون لحاجى خليفة	رقم ٥٢٦٩ ، ١٣٦٠٦ وغيرهما
بروكلمان	الأصل ١ : ٢٩٣ (٢٥٣) .
	الذيل ١ : ٤٤٧ .
مجلة الرسالة [1]	٩ : ٨٥٩ — ٨٦١ ، ٨٨٨ — ٨٩٠ .

---

(١) مقال الدكتور عبد الوهاب عزام « أبو المظفر الأبيوردى شاعر العرب فى القرن الخامس » .

الفصل الثانى

ترجمة الأديب

١

اسمه ونسبه

أبو المظفر محمد بن أبى العباس أحمد بن (محمد بن أبى العباس أحمد بن) إسحاق بن أبى العباس الإمام ، وهو محمد بن إسحاق بن حسن ، وهو أبو الفتيان بن أبى مرفوعة واسمه منصور بن معاوية الأصغر ابن محمد بن أبى العباس ، وهو عثمان بن عنبسة بن عتبة بن عثمان بن عنبسة بن أبى سفيان (صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف)[١] .

ونلاحظ على هذا النسب الذى اتفقت عليه المراجع التى ترجمت للشاعر ، ملاحظتين أوردهما ياقوت فى معجم الأدباء :

أولاهما أنه شكك بهذا النسب حين ذكر أن الشاعر كان من أبيورد ، ولم يعرف له هذا النسب ، وأنه اختلقه حين هرب إلى همذان بعد أن أباح الخليفة دمه حتى ذهب عنه ما قرف به من مدح صاحب مصر[٢] .

وثانيتهما أنه عاد فذكر له — قراءة من خط تاج الإسلام (السمعانى) — نسباً مختلفاً بعض الاختلاف عن النسب السابق الذى أورده له فى أول ترجمته[٣] .

---

(١) هذا نسبه فى صدر ديوانه . والزيادات بين الأقواس من معجم الأدباء ١٧ : ٢٣٤ والوفيات ٤ : ٤٤٤ — ٤٤٥ . ورد نسبه فى سائر المراجع مع نقص فى بعض الأسماء ، واختلاف فى بعض الكنى .

(٢) انظر معجم الأدباء ١٧ : ٢٣٤ — ٢٣٥ .

(٣) ١٧ : ٢٤٣ . وهذا النسب متوافق مع ما ذكره السمعانى فى الأنساب تحت لفظ « المعاوى » .

ومهما يكن من شأن هاتين الملاحظتين فإن هنالك بعض الحقائق المتصلة بنسبه ، نوردها مطمئنين :

١ – صرح الشاعر فى أحد أشعاره باسم أحد أجداده :

فجـدّى وهو عنبسة بن صخر
برىء من يزيد ومن زياد[١]

٢ – اتفقت المراجع التى ترجمت للشاعر على نسبته إلى معاوية الأصغر. ومعاوية هذا « أول من تدير كوفن ، وهى قصبة بين نسا وأبيورد[٢] » . وفى شعره إشارة إلى ذلك :

وتلك دار ورثناها معاوية
لكنَّ كوفنَ ألقانا بها الزمن[٣]

٣ – أجمعت المراجع أيضاً على رفع نسبه إلى أبى سفنان ، وهو ما يثبته شعره :

وأقرع أبواب الملوك بوالد
حوى بأبى سفيان أشرف منتمى[٤]

---

(١) معجم الأدباء ١٧ : ٢٣٥ .

(٢) تديرها : اتخذها دارا ، والقصبة : القرية . معجم الأدباء ١٧ : ٢٣٩ . ونسا : مدينة بخراسان بينها وبين أبيورد يوم ، وخرج منها جماعة من أعيان العلماء . انظر المادة فى معجم البلدان ، وانظر « أبيورد » فى الفقرة التالية : لقبه ونسبته .

(٣) الديوان – البيت ٦ من القصيدة ١٨٧ .

(٤) الديوان البيت ٣٥ من القصيدة ٤٩ .

٤ ــ ذكر أنه « كان يكتب فى نسبه : المعاوى »[١] ، وأنه كتب مرة قصة إلى الخليفة المستظهر ، وكتب على رأسها : الخادم المعاوى ، يعنى معاوية بن محمد بن عثمان ، لا معاوية بن أبى سفيان ، فكره الخليفة النسبة إلى معاوية واستبشعها ، فأمر بكشط الميم ، ورد القصة ، فبقيت : الخادم العاوى ![٢] .

وقد استعمل الشاعر لفظ المعاوى فى شعره كثيراً كقوله :

والمعـــاوى إذا رام العـــلا
نَعِـــرُ النيّـــة نسّال القوافى[٣]

٥ ــ كان يحس بشرف نسبه الأموى ويزدهيه ذلك . « قال أبو على العجلى : كنت يوماً متكسراً فأردت أن أقوم فعضدنى الأبيوردى وعاونى على القيام ، ثم قال : أموياً يعضد عجلياً كفى بذلك شرفاً ! »[٤] .

وظهر فى شعره منتهى اعتزازه بنسبه كما فى قوله :

إذا انتسبنا أَحب الناس أَنهـــمُ
منَّا ، ولم نـــرض أَن نُعزى إلى أَحد[٥]

---

(١) الأنساب « المعاوى » والوفيات ٤ : ٤٤٥ ، والوافى بالوفيات ٢ : ٩١ .
(٢) الوفيات ٤ : ٤٤٥ ــ ٤٤٦ ، ومعجم الأدباء ١٧ : ٢٣٦ ، واللباب ٣ : ١٥٥ ، والنجوم الزاهرة ٥ : ٢٠٦ ــ ٢٠٧ ، والإنباه ٣ : ٥١ ، ومرآة الزمان ٨ : ٤٩ ، والمنتظم ٩ : ١٧٧ ، والبداية والنهاية ١٢ : ١٧٦ ، والشذرات ٤ : ١٩ ، والوافى بالوفيات ٧ : ٩١ .
(٣) الديوان ــ البيت ٧ من القصيدة ١٨٨ .
(٤) معجم الأدباء ١٧ : ٢٦٧ ، والإنباه ٣ : ٥١ .
(٥) الديوان ــ البيت ٥ من القصيدة ٢٢٩ .

وقوله :

ولنـا إذا العـرب اعتزتْ جـرثومةٌ
خُلق النبي محمـد من طينهـا[1]

أما أمه فقد كانت تنتسب إلى العجم ، ودل على ذلك أشعار له ، منها :

فخالى رفيع السَّمك فى العُجْم بيتـهُ
وعمى لمـه جرثومة المجـد فى العرب[2]

ومنها :

فأَين مثـلُ أَبى فى العرب قاطبـة
ومَن كخـالىَ فى صيَّابة العجم[3]

وتشير إلى ذلك أيضاً ديباجة إحدى القصائد[4] التى كتبها إلى « بعض أخواله من سروات العجم » ومدحه ومدحهم فيها بقوله :

فتى تورق السمـر اللِّـدان بكفِّـه
وإن دبّ فى أَطـرافهـنَّ ذبولهـا
ويوقظ وسـنان التـراب بضُمَّـرٍ
تـوارى بشؤبوب النجيـع حجولهـا

---

(١) الديوان – البيت ٧ من القصيدة ١٣٧ .
(٢) الديوان – البيت ٤ من القصيدة ٢٤٤ .
(٣) الديوان – البيت ٣ من القصيدة ١٦٩ .
(٤) القصيدة ٨٦ .

عليهـــا كماة الترك من فرغ يافثٍ
كثيـــر بمستن المنايـــا نـــزولها[١]

٢

لقبـــه ونسبته

لقب شاعرنا فى صدر ديوانه[٢] بفخر الرؤساء ، جمال العرب ، أفضل الدولة ، أوحد العصر ، تاج خراسان . ولقب فى بعض المراجع[٣] باثنين من هذه الألقاب : فخر الرؤساء وأفضل الدولة .

وعرف فى المصادر جميعاً بالأبيوردى ، وعرف فى بعضها بالكوفى .

فالأبيوردى « بفتح الهمزة ، وكسر الباء الموحدة ، وسكون الياء التحتية وفتح الواو ، وسكون الراء ، وبعدها دال مهملة ، نسبة إلى أبيورد ، ويقال لها : أبا ورد وبا ورد ، وهى بلدة بخراسان خرج منها جماعة من العلماء وغيرهم . »[٤] ويضيف ياقوت إلى هذه المعلومات قوله : « ذكرت الفرس فى أخبارها أن الملك كيكاوس أقطع باورد بن جودرز أرضاً بخراسان فبنى بها مدينة وسماها باسمه فهى أبيورد. مدينة بخراسان بين سرخس ونسا ، وبيئة رديئة الماء يكثر فيها خروج الرق . . وفتحت أبيورد على يد عبد الله ابن عامر بن كريز سنة ٣١ ، وقيل : فتحت قبل ذلك على يد الأحنف بن قيس التميمى[٥] » .

---

(١) الديوان – الأبيات ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ من القصيدة .
(٢) انظر ديباجة القصيدة الأولى فى الديوان .
(٣) الوفيات ٤ : ٤٤٥ ، والإنباه ٣ : ٥٠ ، والشذرات ٤ : ١٩ .
(٤) الوفيات ٤ : ٤٤٩ ، والشذرات ٤ : ١٨ .
(٥) معجم البلدان ، مادة « أبيورد » . والعرق : نبات أصغر يصبغ به طيب الرائحة والطعم . وتقع أبيورد فى الشمال الشرقى لخراسان ، وهى اليوم فى تركستان الروسية .

وأما الكوفنى فنسبه إلى « كوفن » كما نقل ابن خلكان[١] عن المعانى فى كتاب الأنساب فى ترجمة الكوفنى « بضم الكاف ، وسكون الواو ، وفتح الفاء ، وبعدها نون . هذه النسبة إلى كوفن ، وهى بليدة صغيرة على ستة فراسخ من أبيورد بخراسان . بناها عبد الله بن طاهر ، وخرج منها جماعة من المحدثين الفضلاء ، منهم الأديب أبو المظفر محمد بن أحمد الكوفنى المعروف بالأديب الأبيوردى ، والله أعلم » . ولا يزيد ما أورده ياقوت فى تعريف هذه البلدة عما نقله ابن خلكان[٢] » .

٣

مولده

(أ) المكان :

استطعنا من إشارة صغيرة أوردها ياقوت ، وأخرى أوردها ابن خلكان ، معروف مكان ولادة الشاعر . فقد ذكر ياقوت فى معجم البلدان فى الكلام على كوفن : « أن منها أبا المظفر محمد بن أحمد الأبيوردى المعاوى[٣] الأديب الشاعر ، صاحب النجديات والعراقيات والتصانيف فى الأدب » . وذكر ابن خلكان فى الكلام على كوفن أيضاً أنه « خرج منها جماعة من المحدثين الفضلاء ، منهم الأديب أبو المظفر محمد بن أحمد الكوفنى المعروف بالأديب الأبيوردى »[٤] .

ويتبين من إشارة أخرى فى ديوان الشاعر[٥] أن هذا البلد كان موطن

---

(١) الوفيات ٤ : ٤٤٩ .
(٢) انظر معجم البلدان ، مادة « كوفن » .
(٣) فى الأصل : العلوى . وهو تحريف واضح .
(٤) الوفيات ٤ : ٤٤٩ .
(٥) ديباجة القصيدة ٦٨ .

أهله وأقاربه ولهم فيه مكانة يدل عليها ما جاء فى تلك الإشارة من قوله متحدثاً عن عمه » وكانت إليه الخطابة بكوفن ، يستنيب فيها من يختاره ، وربما تولاها بنفسه فى الأعياد والأشهر الحرم . وأول من نصب المنبر بها أحد أجداده » . ولا يخفى ما لمنصب الخطابة من مكانة وأهمية فى التاريخ الإسلامى ، تعكس مكانة أسرته هناك .

إلا أن الأبيوردى غادر قريته التى خرج منها – كما سيأتى فى الكلام على حياته – وترك لنا فى ديوانه قطعة شرح فيها أسباب مغادرته بقوله :

سقى الله رَمْلَىْ كوفنٍ صَيِّبَ الحيـا
ولا بَرِحا مستنَّ راع ورائـد
فقـد أوطِنَتْهـا من أُميـةَ عصبـةٌ
غُذوا بالمعالى فى حجور المحامـد
وقـد قايَضَتْهم إذا أُتيح بـوارها
بشرذمـة يَنْميهـم شرّ والـد
هـمُ أفسدوا إذ صاهرونا أُصولنا
وكم صالـح شانَتْه صحبـة فاسد
وأنفـعُ من وصل الأَقارب للفـتى
إذا زهـدوا فيه جوارُ الأَباعـد(١)

---

(١) الأبيات ١ ، ٣ ، ٨ ، ٩ ، ٣٤ من القصيدة ٢٢١ .

(ب) الزمان :

اكتنف الغموض تاريخ ولادة الشاعر ، فقد سكتت كل المراجع التى ترجمت له عن تحديد سنة مولده . ومن الطبيعى أن يؤرخ للأعلام المشهورين بعد اشتهارهم فتعرف سنوات وفاتهم دون ميلادهم . وتبعاً لذلك لم نعرف سنة ولادة الأبيوردى و لا عمره ، ولم يكن أمامنا إلا أن نقدر ذلك تقديراً ، استناداً إلى مجموعة من القرائن نظن أنها تقربنا إلى الاهتداء إلى تاريخ مولده التقريبى ، إن لم تسعفنا فى الوصول إلى ميلاده الحقيقى :

١ — انطوى ديوان الشاعر فى جملة القصائد التى مدح بها الوزير نظام الملك ، على قصيدتين : قيلت الأولى[١] سنة ٤٧٧ هـ بمناسبة فتح قلعة جعبر ودخول الأتراك أنطاكية[٢] ، وذيلت ديباجتها بعبارة « وهى من أول قوله » . وحملت ديباجة القصيدة الثانية[٣] عبارة « وهو مما قاله فى صباه » .

يستنتج من مدلول ديباجة القصيدة الأولى ومناسبتها ، أنه بدأ اتصالاته بالوزراء والحكام ، وقول الشعر فيهم وإذاعته ، حوالى تلك السنة . ويستنتج أيضاً — بمقارنة ذلك بمدلول ديباجة القصيدة الثانية — أن القصيدتين من أول شعره ومن أيام صباه . فإذا قدرنا عمره آنذاك بعشرين سنة ، تكون ولادته حوالى سنة ٤٥٧ هـ ، ويكون عمره حين وفاته حوالى خمسين سنة .

وينسجم هذا التقدير وما ذكره فى أحد أشعاره من أنه جاوز مرحلة الشباب من عمره :

---

(١) الديوان — القصيدة ٢٤ .

(٢) انظر ديباجة القصيدة السابقة ومعجم البلدان ١ : ٢٦٩ .

(٣) الديوان - القصيدة ٥٩ .

فتقضّت شبيبتي بين شكوى
وتجنٍّ وهجرةٍ وعتاب[١]

وينسجم أيضاً مع ما يفهم من مقدمة عراقياته من أنه جاوز الأربعين ، وأن العراقيات حصيلة ما قبل الأربعين . يقول « فأودعتها — المجلة وهى ديوانه — خمسة آلاف بيت مما أملاه على مرح الفتاء ، وميعة الشباب ، وشرة الصبا ، ووسمتها بالعراقيات . وأما ماسمح به الخاطر حين ولتنى الأربعون أذنابها ، أو يدر به إذ متحت الخمسة الأعقد ، وأظلتنى واضحة القتير ، وعلتنى أبهة الكبير ، فهو ينتظم فى سلك ما أقوله ، ويتكفل بتجبيره امتداد العمر وطوله . . »[٢] .

٢ — لا يمكن الذهاب إلى أبعد من السنة التى حددناها لمولده ، ففى ديوانه قصيدة فى مدح المستظهر بمناسبة توليه الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٤٨٧ هـ ، ذكر فيها أنه يرفل فى حلل الشباب ويعبق بغطرها :

وعلىّ من حُلل الشباب ذوائبٌ
عبقت بريّا المسك وهو فتيق[٣]

فيكون عمره سنتئذ فى تقديرنا ثلاثين عاماً ، وهى السن التى يرتدى فيها المرء أبهى حلل الشباب .

---

(١) البيت من القصيدة ١٩٥ .
(٢) مقدمة العراقيات — الديوان .
(٣) الديوان - البيت ١٧ من القصيدة ١٢ .

ويمكن القول أن الشاعر كان فى عنفوان شبابه حين نظم القصيدة التى عرض فيها بالوزير ابن جهير ، بين سنتى ٤٨٧ ، ٤٩٣ هـ : سنة تولى المستظهر الخلافة ، وسنة قضائه على وزيره :

ألا بأبى أُسْدُ الحمى وظباؤه
ومنعرجُ الوادى مصيفاً ومربعا
أَجرّ به ذيل الشباب وأَرتدى
بأَسحمَ فينان الذوائب أفرعا[١]

٣ — أن جو الحسد والدسائس والمؤامرات التى يعكسها ديوانه ، والتى أودت به فيما يذكر ياقوت[٢] ، وما سيأتى تفصيله عند الكلام على وفاته ، يؤيد عقلا ، وفاته فى سن مبكرة ، لأن تلك الدسائس تستهدف الرجال اللامعين ذوى المستقبل الذين يخشى من تسنمهم المراكز والمناصب ، ولا تهتم بمن هم هامة اليوم أو غد من الرجال .

٤ — ما جاء فى بعض الدراسات[٣] من تقدير مولد الشاعر سنة **٤٣٩** هـ ليس بشىء من الوجهين التاليين :

(أ) كيف يمكن قبول بدء قوله الشعر سنة ٤٧٧ هـ ، وعمره فى هذا التقدير ثمان وثلاثون سنة ، مع أن المعروف قديماً نبوغ الشعراء نبوغاً مبكراً ؟ بل كيف نوفق بين بلوغه الثامنة والثلاثين وما جاء فى ديباجة القصيدة نفسها من أنه قالها فى صباه ؟

---

(١) الديوان — البيتان ١٥ ، ١٦ من القصيدة ٢٩ .
(٢) انظر سبب وفاته فى معجم الأدباء ١٧ : ٢٣٥ ، ٢٣٤٨ .
(٣) الأبيوردى تأليف ممدوح حقى ص ٥٥ — ٥٨ .

(ب) ثبت بالنص أن عراقيات الشاعر من حصاد الأربعين . فهل يمكن أن يكون نظمها فى سنتين اثنتين ، مع أن فى مناسبات قصائدها ، وديباجاتها ، إشارات واضحة إلى امتداد الأحداث المرتبطة بها إلى ما يقرب من عشرين سنة (ابتدأت بأول قوله الشعر وانتهت بانتهاء القرن الخامس وموت ممدوحيه ومعاصريه) ؟[1] .

٤

شيوخه وتلاميذه

ذكرت المراجع أسماء عدد من شيوخ الشاعر وأساتذته . فقد سمع إسماعيل بن مسعدة الجرجانى ، وعبد الوهاب بن محمد الشهيد ، وأبا بكر ابن خلف الشيرازى ، وأبا محمد الحسن بن أحمد السمرقندى ، وعبد القاهر الجرجانى[2] . وسمع أيضاً أبا الفضل بن خيرون[3] ، ومالك بن أحمد

---

(١) مثال ذلك أن القصيدة ٢٤ نظمت سنة ٤٧٧ ، والقصيدة ٦٢ نظمت سنة ٤٩٢ .

(٢) معجم الأدباء ١٧ : ٢٣٥ – ٢٣٦ . وبعض هؤلاء فى المنتظم ٩ : ١٧٧ ، وطبقات الشافعية ٤ : ٦٢ ، وبغية الوعاة ١ : ٤٠ ، وروضات الجنات ٦٢٤ ، والأنساب « المعاوى » ، واللباب ٣ : ١٥٥ ، ومرآة الزمان ٨ : ٤٩ .

والجرجانى : هو أبو القاسم إسماعيل بن مسعدة بن إسماعيل بن الإمام أبى بكر أحمد ابن إبراهيم الإسماعيلى . عالم نبيل له يد فى النظم والنثر . روى جماعة ، وكان إماماً فقيهاً شافعياً . عاش سبعين سنة . وله سنة ٤٠٤ ومات سنة ٤٧٤ فى رواية ابن الأثير (١٠ : ٥٢) ، ومات سنة ٤٧٧ فى رواية الشذرات (٣ : ٣٥٤) .

والشيرازى : هو أبو بكر أحمد بن على بن عبد الله بن عمر بن خلف الشيرازى ثم النيسابورى . سند خراسان ، أديب محدث متقن صحيح السماع . روى عن طائفة توفى سنة ٤٨٧ ، وقد نيف على التسعين . الشذرات ٣ : ٣٧٩ – ٣٨٠ .

والسمرقندى : هو أبو محمد الحسن بن أحمد بن محمد بن القاسم بن جعفر القاسمى . محدث ، له تصانيف . توفى سنة ٤٩١ وقيل ٤٩٠ . الشذرات ٣ : ٣٩٤ – ٣٩٥ .

والجرجانى : هو أبو بكر عبد القادر بن عبد الرحمن بن محمد . واضع أصول البلاغة ، ومن أئمة اللغة . له شعر رقيق ومؤلفات كثيرة . مات سنة ٤٧١ وقيل ٤٧٤ . البغية ٢ : ١٠٦ ، والإنباه ٢ : ١٨٨ ، ونزهة الألباء ص ٣٦٣ – ٣٦٤ ، وطبقات الشافعية ٣ : ٢٤٢ ، والشذرات ٢ : ٣٤٠ .

(٣) المنتظم ٩ : ١٧٧ ، واللباب ٣ : ١٥٥ ، ومرآة الزمان ٨ : ٤٩ .

وأبو الفضل هو أحمد بن الحسن بن خيرون البغدادى الحافظ . كان ثقة ثبتاً صاحب حديث . توفى سنة سنة ٤٨٨ وعمره فوق اثنتين وثمانين سنة . الشذرات ٣ : ٣٨٣ .

البانياسى [١] ، وأبا الفضل أحمد بن الحسن الأمين [٢] . وجاء أنه سمع الحديث ورواه [٣] .

وقد روى عن الأبيوردى جماعة [٤] ، ونقل عنه الحفاظ الأثبات الثقات [٥] . وممن روى عنه أبو بكر بن الشهرزورى بالموصل ، وأبو على الأوى بأصبهان ، وأبو الفضل الأديب بهمذان ، وعمرو بن عثمان المرى بمرو [٦] . وروى عنه أيضاً السلفى ، وأبو بكر بن الحاضنة ، وأبو عامر

(١) طبقات الشافعية ٤ : ٦٤ ، والبغية ١ : ٤٠ .

والبانياسى هو أبو عبد الله مالك بن أحمد بن على بن الفراء البغدادى . سمع عن جماعة وروى الحديث . احترق فى الحريق العظيم الذى وقع ببغداد واحترق فيه من الناس عدد كثير . توفى سنة ٤٨٥ وله سبع وثمانون سنة . الشذرات ٣ : ٣٧٦ .

(٢) الأنساب « المعاوى » . ولم أجد ترجمته .

(٣) النجوم الزاهرة ٣ : ٢٠٦ ، والوافى ٢ : ٩١ . وانظر معجم الأدباء ١٧ : ٢٤٤ . ومن روايته الحديث ما جاء فى طبقات الشافعية ٤ : ٦٣ « كتب إلى أحمد بن أبى طالب عن ابن النجار أن القاضى عبد الرحمن بن أحمد الحصرى حدثه عن أبى عامر محمد بن سعدون بن مرجا العبدرى ، قال : حدثنا أبو المظفر الأبيوردى من لفظه ببغداد فى جمادى الأولى سنة ثمان وثمانين وأربع مئة ، أخبرنا أبو سعد إسماعيل بن عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى بجرجان ، أنا أبو الحسين عبد الغافر بن محمد الفارسى ، حدثنا أبو أحمد الجلودى ، حدثنا إبراهيم بن محمد ابن سفيان ، حدثنا مسلم بن الحجاج ، حدثنا زهير بن حرب ، حدثنا إسماعيل بن علية عن عبد العزيز عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، فان كان لا بد متمنياً فليقل : اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى » .

(٤) معجم الأدباء ١٧ : ٢٤٤ ، والبغية ١ : ٤٠ ، وروضات الجنات ص ٦٢٤ .

(٥) الشذرات ٤ : ١٩ .

(٦) الأنساب « المعاوى » .

والشهرزورى : هو أبو بكر محمد بن القاسم بن المظفر بن على الموصلى قاضى الخافقين . ولد بإربل سنة ٤٥٣ ، وسمع من جماعة منهم أبو بكر بن خلف الشيرازى ، وروى عن عنه جماعة . ولى القضاء بعدة بلاد من بلاد الجزيرة والشام . توفى ببغداد سنة ٥٣٨ . طبقات الشافعية ٤ : ٩٥ — ٩٦ .

ولم أجد ترجمة لمن يدعى أبا على الأوى . ولعله محرف عن « الأوشى » وهو محمد بن أحمد ابن على بن خالد الفرغانى (نسبة إلى فرغانة ، وهى بلد فى تركستان الروسية) . فقيه ، توفى سنة ٥١٣ . هدية العارفين ٢ : ٨٤ . ولم أعثر على ترجمة الآخرين .

العبدرى[١] ، وأبو محمد عبد الله بن نصر المزيدى[٢] . وغيرهم .

٥

ثقافته ومعارفه

أجمعت المراجع على سعة ثقافة شاعرنا وتعدد معارفه ، وجعلته إماماً فى كل علم وفن . ولم يخل واحد منها من ذكر علومه والإشادة بمعارفه . إلا أن بعض من ترجم له خلع عليه ألقاباً اتسمت بالمبالغة أحياناً ، فقد وصف بأنه « أوحد عصره ، وفريد دهره فى معرفة اللغة والأنساب». وغير ذلك . وأورد فى شعره ما عجز عنه الأوائل من معان لم يسبق إليها[٣] . وأليق ما وصف به قول أبى العلاء المعرى :

(١) الطبقات ٤ : ٦٢ .

والسلفى : هو الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم بن سلفة الأصفهانى الملقب صدر الدين . رحل فى طلب الحديث ودخل بغداد وتلقى على علمائها . توفى سنة ٥٧٦ . الوفيات ١ : ١٠٥ – ١٠٧ ، وطبقات الشافعية ٤ : ٤٣ – ٤٩ . والإنباه ١ : ٤٠ (حاشية ١).

وأبو بكر بن الخاضبة : هو محمد بن أحمد بن عبد الباقى البغدادى الحافظ . روى الحديث ورحل إلى الشام وسمع طائفة . كان كبير القدر نقاداً علامة محبباً إلى الناس كلهم لدينه وتواضعه ومروءته ومسارعته فى قضاء حوائج الناس ، مع الصدق والورع وطيب القراءة . توفى سنة ٤٨٩ . شذرات الذهب ٣ : ٣٩٣ .

والعبدرى : هو أبو عامر محمد بن سعدون بن مرجا الميورقى الحافظ الفقيه الظاهرى نزيل بغداد أدرك أبا عبد الله البانياسى . كان فهماً عالماً متعففاً مع فقره ، متصرفاً فى فنون من العلوم . توفى سنة ٥٢٤ . الشذرات ٤ : ٧٠ ، وحرفت نسبته فيه إلى « العبدوى » خطأ .

(٢) أديب فاضل ، روح فى البلاد ، واقتبس العلوم من الأئمة الأكابر ، وقرأ الأدب على الأديب الأبيوردى وبرع فيه . ولد سنة ٤٨٢ ، وتوفى فى خلافة المقتفى سنة ٥٤١ . نزهة الألباء ص ٤٠١ .

(٣) لعل الشاعر عرف ذلك فى نفسه فأشار إليه فى بعض حواشى شروح ديوانه كما فى قوله (البيت ١٣ ، ١٤ من القصيدة ٢٠) .

كأن الحسام المشرفى شريكه إذا سنحت أكرومة فى المناقب
وما هى إلا شيمة عربية تنقل من إيماننا فى التواضب

بهذه العبارة : ما أظننى سبقت إلى هذا المعنى ا. هـ. وهذا يدل على إبداع وسعة اطلاع ومعرفة بأشعار العرب .

وإنى وإن كنت الأخيـــر زمانه
لآت بما لم تستطعـه الأوائل[١]

وروى عنه محمد بن طاهر المقدسى فى غير موضع من كتابه الذى وضعه فى الأنساب، وقال فى حقه إنه كان أوحد أهل زمانه فى علوم عدة[٢].

وذكره الحافظ أبو زكريا يحيى بن عبد الوهاب (ت ٥١٢) المعروف بابن منده فى تاريخ أصبهان فقال « فخر الرؤساء أفضل الدولة، حسن الخط، جميل الطريقة، يتصرف فى فنون جمة من العلوم، عارف بأنساب العرب، فصيح الكلام، حاذق فى تصنيف الكتب، وافر العقل، كامل الفضل، فريد دهره، ووحيد عصره»[٣].

وقد وصفه ياقوت بأنه « كان إماماً فى كل فن من العلوم، عارفاً بالنحو واللغة والنسب والأخبار، ويده باسطة فى البلاغة والإنشاء، وله تصانيف فى جميع ذلك، وشعره سائر مشهور »[٤].

وافتتح ترجمته فى معجم الأدباء بقوله إنه « أحد قراء أبيورد »[٥]، وهو ما انفرد ياقوت بوصفه به دون سائر المراجع.

---

(١) معجم الأدباء ١٧ : ٢٤٣، وطبقات الشافعية ٤ : ٦٢، والبغية ١ : ٤٠، والإنباه ٣ : ٤٩، وروضات الجنات ص ٦٢٤. وانظر الشذرات ٤ : ١٩، والأنساب « المعاوى »، والوفيات ٤ : ٤٤٥، والوافى بالوفيات ٢ : ٩١، والبداية والنهاية ١٢ : ١٧٦

(٢) الشذرات ٤ : ١٩، والوفيات ٤ : ٤٤٥.

(٣) الوفيات ٤ : ٤٤٥، والإنباه ٣ : ٥٠، والشذرات ٤ : ١٩.

(٤) معجم البلدان « أبيورد ».

(٥) معجم الأدباء ١٧ : ٢٣٤.

وذكر ابن خلكان أنه « كان من الأدباء المشاهير ، راوية نسابة شاعراً ظريفاً ، وكان من أخبر الناس بعلم الأنساب[١] » .

وعلى الرغم من كل هذا الذى قيل فى الشاعر ، وعرف عنه من المعرفة وسعة الاطلاع ، فقد رويت عنه عبارة ذات دلالة خاصة ، قال السمعانى « سمعت أبا الفتح محمد بن على النطنزى[٢] يقول : سمعت الأبيوردى : يقول : كنت ببغداد عشرين سنة حتى أمرن طبعى على العربية ، وبعد أن ارتضخ لكنة »[٣] . ولا ندرى هل ورث لكنته من موطنه الأول أم من نسب أمه .

٦

آثاره

صنف الأبيوردى عدداً من الكتب التى أوردت المراجع أسماء بعضها ، وأورد ياقوت أسماء أكثرها . وهذا هو ثبت مؤلفاته كما ذكرها ياقوت[٤] .

---

(١) الوفيات ٤ : ٤٤٥ . وانظر مصنى المقال ٣٩٠ . ومن علمه بالشعر ما أورده ياقوت (معجم الأدباء ١٧ : ٢٦٢) مما حدثه به الشيخ أبو منصور بن الجواليقى قال : كنت أقرأ على أبى زكريا شعر أبى دهبل الجمحى حتى وصلت إلى هذا البيت :

يجول وشاحاها ويغرب حجلها ويشبع منها وقف عاج ودملج

قال : فقلت له : وصفها بقوله : يجول وشاحها بأنها هضمية الحشى ، وبقوله :

ويشبع منها وقف عاج ودملج

إنها عبلة الزند والعضد ، فما معنى قوله : ويغرب حجلها ؟ فقال : لا أدرى .

وكان الأبيوردى حاضراً ، فلما قمت من عنده قال لى الأبيوردى : أتحب أن تعرف معنى هذا البيت ؟ قلت : نعم . فقال : اتبعنى . فمضيت معه إلى بيته فأجلسنى وأخرج سلة فيها جزاز . فجعل يطوفها إلى أن أخرج ورقة فنظر فيها وقال لى : إنه مدح امرأة من آل أبى سفيان ، وهم يوصفون بأنهم سته حمش .

(٢) نسبة إلى نطنزة : بليدة من أعمال أصبهان .

(٣) معجم الأدباء ١٧ : ٢٤٤ ، والإنباه ٣ : ٥١ .

(٤) معجم الأدباء ١٧ : ٢٤٣ - ٢٤٤ .

١ ــ تاريخ أبيورد ونسا .

٢ ــ المختلف والمؤتلف (*) .

٣ ــ قبسة العجلان فى نسب آل أبى سفيان .

٤ ــ نهزة الحافظ .

٥ ــ المجتبى من المجتنى ، فى رجال كتاب أبى عبد الرحمن النسائى فى السنن المأثورة وشرح غريبه (١) .

٦ ــ ما اختلف وائتلف فى أنساب العرب .

٧ ــ طبقات العلم فى كل فن .

٨ ــ الأنساب (٢) .

٩ ــ تعلة المشتاق إلى ساكنى العراق .

١٠ ــ كوكب المتأمل ، يصف فيه الخيل .

١١ ــ تعلة المقرور فى وصف البرد والنيران وهمذان (٣) .

١٢ ــ الدرة الثمينة .

(*) حققه الدكتور مصطفى جواد ونشره مع المختلف والمؤتلف لابن الصابونى المجمع العلمى العراقى فى بغداد سنة ١٩٥٧ .

(١) « النسائى هذا هو أحمد بن على بن شعيب مؤلف « الخصائص » فى مناقب أمير المؤمنين ، والمتشهد بجرم التشيع فى دمشق فدفن بالرملة سنة ٣٠٣ » معجم المقال ٣٩٠ .

(٢) قد تكون الكتب ذوات الأرقام ٢ ، ٦ ، ٨ كتاباً واحداً .

(٣) فى حاشية معجم الأدباء ١٧ : ٢٤٣ » أما ذكر همذان فلأن شتاءها مفرط البرد ، كثير الثلج ، طويل الأمد ، لا تجدى معه النيران » . وجاء فى « المحمدون » نقلا عن الشعر العربى فى العصر السلجوقى ١ : ١١٨ ، أن « تعلة المقرور » كتاب صنفه بهمذان ، وسببه أن همذان شديدة البرد . وكان هو وجماعة من الأدباء يجتمعون فى الليل وقد عجزوا عن وقود النار للعدم فأخذوا فى التعلل فى ذلك ، فصار منه تأليف لطيف فى فنه .

١٣ ــ صهلة القارح ، رد فيه على المعرى فى سقط الزند .

ثم قال ياقوت : وله فى اللغة مصنفات ما سبق إليها[١] وذكر غير ياقوت[٢] المؤلفات التالية :

١٤ ــ ديوان شعره[٣] .

١٥ ــ النجديات ، منظومة فى ألف بيت .

١٦ ــ زاد الرفاق فى المحاضرات .

١٧ ــ تلو الحماسة[٤] .

١٨ ــ بغية الشادى من علل العروض[٥] .

وقد توفر على تصنيف هذه المجموعة الكبيرة من الكتب والتآليف أو تصنيف بعضها فى همذان بعد مفارقة بغداد ، يقول السبكى « ثم كان رشح من كلامه نوع تشبث بالخلافة . . فاضطره الحال إلى مفارقة بغداد ، ورجع إلى همذان فأقام بها يدرس ويفيد ويصنف مدة »[٦] . إلا أن الأيام لم تبق

---

(١) معجم الأدباء ١٧ : ٢٢٤ ، وانظر أيضاً مرآة الجنان ٣ : ١٩٦ .

(٢) ذكر البغدادى فى هدية العارفين ص ٨٢ المؤلفات ١٤ ، ١٥ ، ١٦ . وذكر صاحب الإنباه ٣ : ٥٠ الأخير فقط (رقم ١٦) . وعثرت له على المؤلفين (١٧ ، ١٨) اللذين ذكرهما الأبيوردى نفسه فى كتاب : زاد الرفاق .

(٣) يقصد به عراقيات الشاعر . ودرجت فى هذه الدراسة على هذا الاستعمال .

(٤) قال الأبيوردى فى «زاد الرفاق» فى معرض الكلام على حماسة أبى تمام : « ولكن اتفق لحبيب اختيارها وهو مقم بهمذان ، فقد رمتنى إليها مقادير أعانت على الزمان ، وتقلبت (لعلها : تقفيت) أثره فى انتقاء ما يضاهيها من أشعار المحدثين ، ورسمت الأوراق المشتملة عليها بـ « تلو الحماسة » ليتشابه غرضانا فى الانتخاب ، كما تكافأت حالانا فى الاغتراب » الورقة ١٦٠/ب .

(٥) يقول فى الكتاب نفسه أيضاً « ولقد أودعت كتابى الموسوم ببغية الشادى من علل العروض . . » الورقة ٢٥٣/أ .

(٦) الطبقات ٤ : ٦٣ .

من هذا الثبت الطويل سوى ديوان شعره ، ونجدياته ، وكتاب زاد الرفاق[١] ـ أما بقية كتبه فمفقودة لا نعلم عنها شيئاً :

٧
صفته وأخلاقه ومعتقده

(أ) كان شاعرنا « حسن السيرة ، جميل الأمر ، منظرانياً من الرجال[٢] » . وقد ذكر فى شعره ما يدل على حسن شكله وافتتان الغوانى به ، وتسابقهن لاستجلاء طلعته :

ولمّتى داجيـــة إذا بدت
سدّت خصاص الْخِدْر أَحداقُ المها[٣]

إلا أن هذه اللمة الداجية سرعان ما ابيضت لما توالى من صروف الليالى ودواهيها :

خليلىّ ما بال الليـــالى تلفّتتْ
إلىّ بأَعناق الخطوب الطـــوارق
وأَعقبنى قبـــل الثلاثين صرفُها
بسود دواهيهـــا بياضَ المفارق[٤]

(ب) وكذلك طوى هذا المظهر الحسن وراءه مخبراً طيباً جمعت بعض صفاته المراجع المختلفة ، وجمع بعضها الآخر شعره :

---

(١) وهو كتاب يشتمل على مناظرات مع أرباب النجوم ونقض لحججهم ، وغير ذلك من المحاضرات فى الأنساب واللغة .

(٢) معجم الأدباء ١٧ : ٢٤٤ ، والإنباه ٣ : ٥٠ ، ومرآة الجنان ٣ : ١٩٦ .

(٣) الديوان – البيت ٣ من القصيدة ٨٥ .

(٤) الديوان – البيت ١ ، ٢ من القصيدة ١٥٣ .

١ ــ فما ذكر من أخلاقه ما قاله العماد الأصبهانى ونقله ياقوت « وكان رحمه الله عفيف الذيل ، غير طفيف الكيل ، صائم النهار ، قائم الليل »[١] .

ومنها ما ذكره السبكى نقلا عن السلفى تلميذ الأبيوردى : « كان الأبيوردى والله من أهل الدين والخير والصلاح والفقه ، قال لى : والله ما نمت فى بيت فيه كتاب الله أو حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم احتراماً لهما »[٢] .

ومنها أنه « كان كبير النفس ، عظيم الهمة ، لم يسأل أحد شيئاً قط مع الحاجة والمضايقة . وكان من دعائه فى الصلاة : اللهم ملكنى مشارق الأرض ومغاربها »[٣] و « كان رئيساً عالى الهمة ، ذا بأو وتيه وصلف »[٤] وقد « حدث السمعانى عن أبى على أحمد بن سعيد العجلى (البديع الهمذانى) قال : سمعت الأبيوردى يقول فى دعائه : اللهم ملكنى مشارق الأرض ومغاربها . فقلت له : أى شىء هذا الدعاء ؟ فكتب إلى بهذه الأبيات :

يعيّرنى أخو عِجْلٍ إبائى
على عُدْمى ، وتيهى ، واختيالى
ويعلم أننى فَرَطٌ لِحَىٍّ
حَمَوا خُطط المعالى بالعوالى
فلست لحاصن إن لم أزُرها
على نَهَلٍ شبا الأَسَلِ الطوال

(١) معجم الأدباء ١٧ : ٢٣٩ .
(٢) طبقات الشافعية ٤ : ٦٢ .
(٣) معجم الأدباء ١٧ : ٢٣٥ . وانظر الإنباه ٣ : ٥٠ ، والوفيات ٤ : ٤٤٥ ، والنجوم الزاهرة ٥ : ٢٠٦ ، والمنتظم ٩ : ١٧٧ ، والطبقات ٤ : ٦٢ ، والوافى بالوفيات ٢ : ٩٢ ، ومرآة الزمان ٨ : ٤٩ ، والشذرات ٤ : ١٩ ، والبداية والنهاية ٢ : ١٧٦ .
(٤) العبر ٤ : ١٤ ، والشذرات ٤ : ١٨ ، وانظر مرآة الجنان ٣ : ١٩٦ .

وإن بلـــغ الرجالُ مـــــداى فيما
أُحاولـــــه فلستُ من الرجال[١]

٢ــ وقد أكد الشاعر فى شعره هذا « التيه والصلف» الذى نعت به فلأ ديوانه فخراً بنفسه وعلو همته ، ولم يغادر صغيرة ولا كبيرة من المعالى إلا أحصاها ونسبها إلى نفسه وزين بها شعره ، فجاء فى جملته صورة لهذه النفس الأبية التى تحمل الضيم ، وتقارع الخطوب وتطمح أبداً إلى أعلى الدرجات :

أَلم تعلمـــا أَنى على الخطب إن عرا
صبـــورٌ إذا ما عاجـــزٌ عيل صبرُهُ

فـــلا عِـــزَّ حتى يَحمـلَ المرءُ نفسه
على خُطـــةٍ يبقى بهـــا الدهرَ ذكرُهُ

ويَغشى غماراً يُتَّقَى دونها الـــــردى
فإن هـــو أَودى قيل : لله دَرُّهُ ![٢]

وحسبنا ما تحمله أبيات القطعة التالية[٣] من أخلاق سامية :

قضتْ وطـرًا منى الليالى فلم أَبُح
بشكوى ، ولم يَدْنَسْ علىّ قميص

---

(١) معجم الأدباء ١٧ : ٢٣٧ ، والإنباه ٣ : ٥٠ — ٥١ .
(٢) الديوان — الأبيات ٢ ، ٦ ، ٧ من القصيدة ١٤٥ .
(٣) الديوان — القصيدة ٢٢٧ .

أُغالى بِعرضى والنـــوائب تعتـــرى
وغيرى يبيع العِرض وهْـــو رخيص
وقـد علمتْ عليا كنانـــةَ أنـــنى
على ما يَزين الأَكـــرمينَ حريص
أَصون على الأَطماع وجهاً لِبِشْـرِهِ
إِذا عَبَس الدهـــر الخؤُون ، وبيض
فظهـــرى بأَعباء الخصاصة مُثْقَـلٌ
وبطنىَ من زاد اللئـام خميـــص

ولو شئنا الاستطراد فى الاستشهاد وضرب الأمثال لمثلنا لما نقول بديوانه كله ! ولولا خوف الإطالة عرضنا قطعة[1] ضمت « مجموعة فضائل » من أخلاق الشاعر ، ولكنا نحيل إليها فى الديوان لنضيف إلى ما تقدم من صفاته شجاعته النادرة ، ورقة خلقه ، وقدسية عهده ، وفصاحة لسانه .

وخير ما يختم به الحديث عن أخلاق الشاعر أبيات لأبى الفتح البستى أوردها ياقوت فى معرض الكلام على الأبيوردى وأبيورد[2] .

إِذا ما سقى الله البـــلاد وأَهلهـــا
فخص بسقياهـــا بـــلاد أَبيـــورد

---

(١) الديوان — القصيدة ١٥٠ .
(٢) معجم البلدان « أبيورد » .

فقــد أخرجتْ شهماً خطيــراً بـأَسعد
مُبِـــرًّا على الأَقـــران كالأَسد الوَرد

فتى قـــد سرت فى سرّ أَخلاقه العلا
كما قد سرت فى الورد رائحة الورد

(ﺣ) وصف شاعرنا بأنه « حسن الاعتقاد جميل الطريقة »[1] . ويفسر حسن الاعتقاد هذا ما ذكره ابن خلكان فى مناسبة إحدى قصائد الشاعر بقوله « وله وقد أخرج من الحلة المزيدية مكرها ، وكان سنياً »[2] .

ولا مراء فى أن فخر الشاعر بأمويته واعتزازه بها لم يورطه فى الفتن التى أثارتها الخصومات فى عصره ، فقد تمكن أن يكون وسطاً لا تخالط نفسه أهواء العصبية ، ولا يفضل خليفة أو يميز صحابياً . يقول مادحاً الرسول :

وكلّ صحبك أَهــوى فالهــدى معهم
وَغَرْبُ من أَبغضِ الأَخيار مغلول

وأَقتدى بضجيعَيْكَ اقتــداءَ أَبـــى
كلاهما دم من عاداه مطـــــلول

(١) الوفيات ٤ : ٤٤٥ ، والإنباه ٣ : ٥٠ .

(٢) الوفيات ٤ : ٤٤٧ . وفى ديباجة القصيدة ٣٥ المشار إليها ، أنها قيلت فى توفر الوزير عبيد الله بن الحسن (مؤيد الملك بن نظام الملك) على إيواء الشاعر ورعايته من مكيدة نسجت حوله . وانظر القصة التى أوردها ياقوت فى حكاية هذه القصيدة ، فى معجم الأدباء ١٧ : ٢٦٣ — ٢٦٦ .

ومن كعثمان جــوداً ، والسماح له
عبءٌ على كاهــل العلياءِ محمــول
وأين مثـــل عليٍّ فى بسالتـــــــه
بمـــأزِقٍ من يَرِدْهُ فهــــــو مقتول[1]

٨

حياته

عاش الأبيوردى حياة صاخبة حافلة بالأحداث الجسيمة والفتن الدينية والتقلبات المثيرة . وقد قسمنا حياته إلى أطوارها البارزة لاستجلاء وقائع هذه الأحداث ، وتصورها تصوراً سليما شاملا ، بقدر ما سمحت به المعلومات القليلة التى خلفتها المراجع ، وبقدر تمكننا من ربط تلك الأحداث والمعلومات ، وتأليف شاردها لتكوين صورة متكاملة لحياته أو شبه متكاملة .

الطور الأول : وهو طور نشأته فى مسقط رأسه وتمتد حسب تقديرنا حوالى عشرين سنة (٤٥٧ — ٤٧٥ هـ) .

الطور الثانى : وهو طور شهرته فى بغداد . ويستمر عشرين سنة أيضاً (٤٧٥ — ٤٩٥) هـ .

الطور الثالث : ونسميه اصطلاحاً طور ما بعد بغداد . وفيه تنقل بين مدن خراسان حتى استقر به المقام فى أصبهان حيث مات مسموماً كما سيأتى . ويشمل هذا الطور سنى حياته الأخيرة (بين ٤٩٥ و ٥٠٧ هـ) .

---

(١) الديوان — الأبيات ٢٥ — ٢٨ من القصيدة الأولى .

(أ) أما الطور الأول ، وهو طور نشأته الأولى فلا نعرف عنها شيئاً ، ولا أين قضى سنواتها ، وإن كنا نرجح أنه أمضاها فى مسقط رأسه قبل حضوره إلى بغداد يتملى جمال رياض خراسان وروعة طبيعتها ، حتى بلغ مبلغ الصبا .

ويقوى هذا الترجيح ما اكتسبه لسانه من لكنة أجنبية صاحبته حتى آخر أطوار حياته . وإلا فمن أين جاءته هذه اللكنة التى عبر عنها بقوله الذى أوردته سابقاً ؟[1] .

وتطاوحته البلدان والأحداث بعد ذلك ، فلم يكتف بأن يبث مسقط رأسه وجده ، وينفث حنينه وأشواقه شعراً يهديه إلى وطنه وأسرته :

سقياً لكوفنَ من أَرضٍ إذا ذُكـرت
هاجت على عُـدَواء الـــدار أَشواقا

يطيب عِرْقُ الثـــرى منها بكل فتى
من أُسرتى طاب أَعراقاً وأَخـــلاقاً[2]

بل كان يتحرق شوقاً إلى العودة إلى بلده ، وتذكره المناسبات التى تمر به غربته وتذكى عنده لوعة الحنين :

الناس بالعيـــد مسرورون غيرَ فتًى
يشفّه فى إسار الغُربـة الحَزَن

---

(١) انظر : ثقافته ومعارفه .
(٢) الديوان — البيتان ١ ، ٢ من القصيدة ١٧٧ .

وتلك دارٌ ورثناها معاويـــــةً
لكنَّ كوفنَ ألقانا بهـــا الزمن
أصبـــو إليهـــا وأشواقى تُبرّح بى
وتمنـــع العينَ أن يعتادَها الوسن
فليت شعرى وليتٌ غيـــرُ نافعـــة
هـــل يبدونَّ لعينَىْ مُنْجِدٍ حَضَن ؟[1]

وقد قدرنا امتداد هذه الفترة إلى ما يقارب عشرين سنة كما تقدم .

(ب) ويبدأ الطور الثانى ، طور الشباب مع ما عرفنا من أول شعره[2] ولكن لم يتضح لنا متى فارق الشاعر موطنه الأصلى ، فليس فيما بين أيدينا ما يدل على ذلك . أما إقامته فى بغداد فقد حددها الشاعر نفسه بعشرين سنة فى قوله المتقدم « كنت ببغداد عشرين سنة حتى أمرن طبيعى على العربية . . »[3] .

وقد ذكرنا من قبل أننا نقدر وجوده فى بغداد بين سنتى ٤٧٥ — ٤٩٥ هـ ونضيف إلى ذلك جازمين ، أنه كان فيها سنة ٤٨٨ ، وما قبلها ، ففى الحديث النبوى الذى أورده السبكى فى ترجمة الشاعر ، وذكر الأبيوردى فى سنده ، نقل عمن روى عنه فى سلسلة السند قوله :

« . . حدثنا أبو المظفر الأبيوردى من لفظه ببغداد فى جمادى الأولى سنة ثمان وثمانين وأربع مئة . . »[4] .

---

(١) الديوان — الأبيات ١ ، ٦ ، ٧ ، ٨ من القصيدة ١٨٧ .
(٢) كالقصيدة ٢٤ التى هى من أول قوله ، والقصيدة ٥٩ التى قالها فى صباه .
(٣) معجم الأدباء ١٧ : ٢٤٤ ، والإنباه ٣ : ٥١ .
(٤) طبقات الشافعية ٤ : ٦٣ .

وفى بغداد مقر الخلافة والحكم ، وميدان الطموح والتسابق إلى الشهرة التى تطلع إليها الشاعر ووافقت فى نفسه هوى شديداً — كما دلت أخلاقه — بدأ اتصالاته بالوزراء والحاكمين يمدحهم ويتقرب إليهم ، لا طمعاً فى مال ، بل وسيلة للظهور والسيطرة ، وتحقيقاً لما يجيش فى نفسه من الوصول إلى الرئاسة والسلطة ، فقد مدح الخليفتين العباسيين اللذين عاصرهما : المقتدى بأمر الله (٤٤٨ — ٤٨٧) وولده المستظهر بالله (٤٧٠ — ٥١٢) ، ومدح نظام الملك (٤٠٨ — ٤٨٥) وزير السلاجقة الشهير بعدة قصائد ، ومدح أيضاً ولديه الوزير مؤيد الملك (— ٤٩٥) والوزير أحمد . وتقرب إلى أمير الحلة القوى صدقة ابن منصور بن دبيس الأسدى (٤٤٢ — ٥٠١) ومدحه بعدة قصائد . أما السلاطين السلاجقة فقد اغتنم المناسبات والظروف فى التقرب إلى بعضهم ، فهنأ السلطان ملكشاه بفتح أنطاكية[١] ، ومدح السلطان محمد بن ملكشاه[٢] ، ومدح أخيراً عدداً من أمراء العرب والوزراء والكبراء والرؤساء .

ولا يؤخذ من كلامنا أنه لازم بغداد طوال الفترة التى يمثلها هذا الطور من حياته ، فقد تقرب إلى أمير الحلة كما قدمنا ، وتوجه إليها فخرج الأمير لتلقيه ، وأحاطه بمظاهر العظمة والفخامة ، ثم وعده لسماع مديحه[٣] يوماً آخر ، فخرج الشاعر مغضباً يريد مفارقة الحلة ، فلحق به صدقه وأنزله فى داره وأكرمه[٤] .

ويعود الغموض ليكتنف الأعمال التى تعاطاها الشاعر فترة لبثه فى بغداد :

---

(١) الديوان — القصيدة ٢٤ ، وانظر حاشية ديباجتها بخاصة .

(٢) بالقصائد (١٨ — ٢٠) من زيادات الديوان

(٣) مدحه فى أول لقاء له بقصيدة من غرر قصائده وأطولها . (الديوان — القصيدة ٧) .

(٤) انظر قصة لقاء الشاعر بأمير الحلة فى معجم الأدباء ١٧ : ٢٦٣ — ٥٦٦ .

— فلا المراجع أفصحت عن أكثر من أنه « كان ببغداد فى خدمة مؤيد الملك بن نظام الملك » فسعى به إلى الخليفة » فأبيح دمه فهرب إلى همذان »[١] . وهذا يدل على أن خدمته لهذا الوزير آخر أعماله قبل هربه مباشرة .

— ولا الديوان أشار إلى أكثر من الخصومات السياسية التى غرق فيها صاحبنا إلى أذنيه ، فمرة يستعدى وزيراً على آخر[٢] ، ومرة أخرى يستصرخ وزيراً لاستخلاص حق سليب[٣] . وأخيراً ترجح كفة خصومه الذين ألجؤوه إلى مفارقة بغداد والانتزاح عن العراق[٤] . وقد قاد جبهة الخصوم ابن جهير وزير المستظهر ، الذى عرض به الشاعر مراراً فى قصائده . ونرى أن ما انتهى إليه أمر الشاعر هو النتيجة الطبيعية لمن يعيش أجواء الحاكمين التى قلما تخلو من الدسائس والمكائد والمؤامرات :

وقد اجتمع لدينا سببان مختلفان حملاه على مغادرة بغداد :

الأول ما ذكره ياقوت من أنه « كان ببغداد فى خدمة مؤيد الملك ابن نظام الملك ، فلما عادى مؤيد الملك عميد الدولة ابن جهير[٥] ألزمه أن يهجوه ففعل ، فسعى عميد الدولة إلى الخليفة بأنه قد هجاك ومدح صاحب مصر ، فأبيح دمه فهرب إلى همذان[٦] » .

---

(١) معجم الأدباء ١٧ : ٢٣٤

(٢) الديوان — القصيدة ٣٥ .

(٣) الديوان — القصيدة ٨٢ .

(٤) الديوان — القصيدة ٣٠ .

(٥) فى الأصل : ابن منوجهر . وهو غلط لأنه ليس بين وزراء هذه الفترة من تلقب بعميد الدولة وله هذا الاسم ، وهذا اللقب من ألقاب الوزير ابن جهير ، فضلا عن أن الأحداث الجارية تدل على وقوع الخصومة بين الوزيرين . وانظر حاشية ديباجة القصيدة ٣٥ من الديوان .

(٦) معجم الأدباء ١٧ : ٢٣٤ . ولا يمكن أن تكون مفارقته فى وزارة مؤيد الملك لبركيارق ابن ملكشاه ، بل فى فترة وزارته لأخيه محمد بعد خلع بركيارق ، بدليل أنه يهنئ مؤيد الملك فى إحدى قصائده (الديوان — رقم ٦٢) على تغلب محمد بن ملكشاه على أخيه بركيارق .

والسبب الثانى ما ذكره السبكى من أنه « حصلت له من السلطان مكانة ونعمة ، ثم كان رشح من كلامه نوع تشبث بالخلافة ، ودعوة إلى اتباع فضله ، وادعاء استحقاق الإمامة ، يبيض وسواس الشيطان فى رأسه ويفرخ ، ويرفع الكبر بأنفه ويشمخ ، فاضطره الحال إلى مفارقة بغداد »[١] .

ولعل أحد هذين السببين نتيجة للآخر ، ويبدو أن خصومه السياسيين استغلوا ادعاءاته وتشبثه بالخلافة ، فلفقوا له التهمة التى فر على أثرها من البلاد :

والظاهر أن الشاعر كان فى الحاشية والمحسوبين على الديوان الخلافى ، فقد صدرت عن الديوان المذكور كتب عوتب فيها على مفارقة بغداد ، فأجاب عن ذلك برسالة رفعها إلى مقام الخلافة ، ودبجها ببراعة ، وأوضح فيها أسباب ابتعاده ، وختمها ببديعة من بدائعه فى مدح الخليفة المستظهر[٢] . وأشار فى أحد أبياتها إلى نيته العودة :

بغـداد أَيتهـا الْمَطِىُّ فَـواصلى
عَنَقاً تئنُّ لـه القِلاص الضُّمَّر[٣]

ويوافق تاريخ هذه العودة ما ذكر من أنه « ولى خزن خزانة دار الكتب بالنظامية التى ببغداد بعد القاضى أبى يوسف يعقوب بن سليمان الأسفرايني . وكانت وفاة الأسفرايني هذا فى رمضان سنة ثمان وتسعين وأربع مئة » .[٤]

---

(١) طبقات الشافعية ٤ : ٦٣ .

(٢) الرسالة والقصيدة فى معجم الأدباء ١٧ : ٢٤٧ — ٢٥٧ ، والقصيدة تحت رقم ٣٠ فى الديوان .

(٣) البيت ٤١ من القصيدة .

(٤) معجم الأدباء ١٧ : ٢٣٧ .

وقد استطاع فى خضم هذه الأحداث والتطورات أن يكون لنفسه مكانة مرموقة ، وأن يكون شيئاً مذكوراً . ويستطيع المتتبع لتلك الأحداث أن يضع يده على أكثر من دليل لهذه المكانة التى صنعها لنفسه . فمن تلك الدلائل ما تقدم من اهتمام ديوان الخلافة بغيابه وإصدار كتب فى طلب عودته . ومنها الاستقبال المهيب الذى أعده له أمير الحلة حين توجه إليه ، والهدايا التى أثقله بها . ومنها عرض الكتابة عليه كما سيأتى بيانه ، وهو منصب له أهميته وخطره .

(ح) بمفارقة الشاعر بغداد يبدأ الطور الأخير من أطوار حياته . وقد قدرنا وقوع هذه الفترة بين سنة ٤٩٥ ووفاته سنة ٥٠٧ ، باستثناء الفترة التى كان فيها أمين دار الكتب النظامية ببغداد ، ابتداء من سنة ٤٩٨ لمدة غير معلومة . وفى مستهل هذا الطور استأنف حياته فى همذان ، فاشتغل بالتدريس والتصنيف مدة ؛ جاء فى طبقات الشافعية «..فاضطره الحال إلى مفارقة بغداد، ورجع إلى همذان فأقام بها يدرس ويفيد ويصنف مدة»[1] . وبعد ذلك أراد سنقر كفجك أن يجعله طغرائى الملك أحمد ، فمات أحمد فرجع إلى أصفهان بحال سيئة ، وبقى سنين يعلم أولاد زين الملك برسق . ثم تولى فى آخر عمره أشراف مملكة السلطان محمد بن ملكشاه[2] ، واستقر بأصفهان حيث مات فيها ،

---

(١) ٤ : ٦٣ . ومن جملة من تلمذ له فى هذه الفترة أبو محمد عبد الله بن نصر المزيدى ، الذى ولد سنة ٤٨٢ ، وقرأ الأدب عليه وبرع فيه (انظر ترجمته فى نزهة الألباء ٤٠١) ، فلو قدرنا أنه تلقى العلم وهو ابن ثمانى عشرة سنة كان تصدى الأبيوردى للتدريس فى حدود سنة ٥٠٠ .

(٢) أى الولاية على أشرافها . وانظر فيما سبق معجم الأدباء ١٧ : ٢٣٥ ، ٢٣٨ .

وفى ديوان الشاعر قصيدة تشير إلى أن بعض الوزراء عرض عليه فى وقت من آخر أوقاته الكتابة فى معيته . ومع أننا لا نعلم تاريخ هذا العرض ؛ نرجح أنه كان قبيل توليه أشراف المملكة السلطانية ، وفى وقت لم يكن يزاول فيه عملا ، لما فى القصيدة من إشارة إلى ذلك :

خليلىّ إنَّ العمـــرَ ودّعتُ شَرْخَـه
وما فى مشيي من تلافٍ لفـارط

أَلم تعلمـــا أَنى أَنستُ بعطـــلة
مخـافة أَن أُبلى بخدمة ساقط

فـــلا تدعوانى للكتـابة إنهـــا
طَماعـــةُ راج فى مخيـــلة قانط

ينافسنى فيهـــا رَعاعٌ تهادنـــــوا
على دَخَنٍ من بين راضٍ وساخط[1]

وفى هذه الفترة دعاه الحنين لبغداد كما دعاه فى أثناء إقامته فيها إلى موطنه الأول . وقد تفجر هذا الحنين منذ لحظة مغادرته ، فاستعار له ألفاظاً عبر بها عن حرقته والتياعه :

لا سُقيتنَّ الحيـــا من إبـــــلٍ
تَذرعُ الأَرض بصحـــبى وتبـــوع

(١) الديوان – الأبيات ١ – ٤ من القصيدة ١٢١ .

فارقتْ بغـــدادَ والقلبُ بهـــا
كَلِفٌ ، لا فارقتهنَّ النّســـوع

وبنـــا شوق إليهـــا وبهـــا
مثلُـــه ، لا أجدبتْ منها الربوع[1]

ولازمته أشواقه فى مستقره الأخير بأصفهان ، فصار يبعث برسل قوافيه تترى ، تحمل إلى أخلائه العويل وألم الفراق :

فقل لأخـــلاَّئى ببغـــداد هل بكم
سُلوٌّ فعنـــدى رنَّةٌ وعويـــل

تُـــرنّحنى ذكـــراكمُ فكـــأنما
تميـــل بىَ الصهباءُ حيث أميـــل

لئن قصرت أيام أُنسى بقـــربكم
فليلى على نـأى المـــزار طويـل

تعيّـــرنى بنت المعاوى غـــربتى
وكـــلّ طلوع يقتفيـــه أفـــول

وتعجب أنى من ممـــارسة النـــوى
نحيف وفى متن القناة ذبـــول[2]

---

(١) الديوان – الأبيات ٧ – ٩ من القصيدة ١١٥ .
(٢) الديوان – الأبيات ٢٠ – ٢٢ ، ٣٢ ، ٣٣ من القصيدة ٧٣ .

وهكذا أمضه الشوق وفعلت فيه النوي ، فساءت صحته ، وأفل نجمه ، ولبث ينتظر حينه !

عاش الأبيوردى حياة مليئة بالأحداث والمفاجآت كما قدمنا . وعرض من أحواله ما جعله فى غنى وثروة وما أودى به إلى الفقر والحاجة .

والظاهر أن غناه لم يكن متصلا فى فترة واحدة من حياته ولا مقتصراً عليها ، فقد كان غنياً وهو يستقبل الحياة أول أيام صباه . وكان غناه موروثاً ، كف يده عن النوال ، ولسانه عن المديح . يقول فى مقدمة عراقياته « وقد كنت أعبث به — بالشعر — فى عنفوان الصبا ، والذرع خلى والبال رخى ، وعندى عفافة ثروة أسأرتها الأيام ، وأورثنيها الآباء والأعمال ، فما حدانى الطمع على تقريظ أحد ، ولا دعانى إلى امتراء النعمى من يد[1] » :

— وكان غنياً فى أوج عنفوانه حين كانت صلته بالوزراء والأمراء على خير ما تكون الصلات . وتدل مظاهر الغنى والترف التى أحيط بها لدى زيارته الحلة وأميرها ، وما أوقره الأمير به من هدايا وأعطيات ، على ما كان يرفل فيه من حلل النعيم . قال ياقوت : حدثنى القاضى أبو سعد محمد بن عبد الملك بن الحسن الندىم « أن أفضل الدولة الأبيوردى لما قدم الحلة على سيف الدولة صدقة ممتدحاً له — ولم يكن قبلها اجتمع به قط — خرج سيف الدولة لتلقيه . قال : وكنت فيمن خرج فشاهدت الأبيوردى راكباً فى جماعة كثيرة من أتباعه ، منهم من المماليك الترك ثلاثون غلاماً ، ووراءه سيف مرفوع ، وبين يديه ثمانى جنائب[2] بالمراكب والسرفسارات[3]

---

(١) ليس بين هذا وبين ما قدمناه من أن المديح أول ما عرف به الشاعر تناقض فما نرى ، فما صرح به فى مقدمته — وهو مذهبه فى المديح — يوضحه بعد بقوله « فأزرتهم الخلفاء والوزراء — مدحاً مستنبرة ، وأهديت إليهم كلما حبيرة ، ولم أسألهم نوالا ، ولا رزأتهم مالا » .

(٢) الجنيبة : الناقة تقاد . وفى الأصل : ثمان ، وهو خطأ .

(٣) السرفسار : اللجام .

الذهب . وعددنا ثقله فكان على أحد وعشرين بغلا . وكان مهيباً محترماً جليلا معظماً لا يخاطب إلا بـ « مولانا » ، فرحب به سيف الدولة ، وأظهر له من البر والإكرام ما لم يعد مثله فى تلقى أحد ممن كان يتلقاه . وأمر بإنزاله وأكرمه والتوفر على القيام بمهامه ، وحمل إليه خمس مئة دينار وثلاثة حصن وثلاثة أعبد . : . [1] » .

— وفيما عدا ذلك نراه رقيق الحال محتاجاً للمساعدة يشكو فقره وتقلب الزمان به تارة :

خليلىّ إن أَلــوى بىَ الفقر لم أُبَلْ
أَيُسفح ماء الوجــه منى أَو الدم

يعمّ الورى جداوى إن راشنى الغِنى
وأَستر عنهــم خَلَّتى حين أُعدِم [2]

وأطماره البالية وثيابه الرثة تارة أخرى :

رأَت أُميمــةُ أَطمارى وناظــرُها
يعـوم بالدمع منهلاًّ بـــــوادِره

إن رثَّ بُردى فليس السيف محتفلاً
بالغمـــد وهـــو رميض الغرب باتره [3]

---

(١) انظر قصة استقباله كاملة فى معجم الأدباء ١٧ : ٢٦٣ — ٢٦٦ .
(٢) الديوان — البيتان ١ ، ٢ من القصيدة ٢١٤ .
(٣) الديوان — البيتان ١ ، ٤ من القصيدة ٢١١ .

بل يستنجد بالخليفة ليهبه داراً يسكنها :

ومنـزلى أَبلت الأَيـــام جِـــدّته
فشفَّـــنى المُبليـــان الهـــمُّ والسّهر
وابن المعـــاوىّ يهوى أَن يكون له
مغنى ببغداد لا يُخشى بـــه الغير (١)

وقد لازمه سوء حظه إلى ما بعد مفارقته بغداد ، حيث اضطر أن يعمل مؤدب صبيان حيناً (٢) ، وأن يبقى بلا عمل حيناً آخر :

أَلم تعلمـــا أَنى أَنستُ بعطـــلة
مخافة أَن أُبـــلى بخـــدمة ساقط (٣)

وهكذا طوى الزمان سجل حياة أحد الأعلام ، وأورثنا ما حوى من عبر ، وما خلف من أثر باق على الأيام .

٩
وفاته

توفى أبو المظفر الأبيوردى سنة ٥٠٧ بإجماع المراجع كلها (٤) . وجاء فى بعضها أنه « أحضر عند السلطان أبى شجاع محمد بن ملكشاه بشخصه وهو

(١) الديوان – البيتان ٢٧ ، ٣٣ من القصيدة ٩٧ .
(٢) معجم الأدباء ١٧ : ٢٣٥ .
(٣) الديوان – البيت ٢ من القصيدة ١٢٢ .
(٤) المنتظم ٩ : ١٧٧ ، ومعجم الأدباء ١٧ : ٢٣٥ ، والإنباه ٣ : ٥٢ ، والأنساب « المعاوى » ، وتاريخ الكامل ١٠ : ١٨٨ ، وتاريخ أبى الفدا ٢ : ٢٣٨ ، والعبر ٤ : ١٤ ، والوفيات ٤ : ٤٤٩ ، والشذرات ٤ : ٢٠ ، وهدية العارفين ٢ : ٨١ ، ومصفى المقال ٣٨٩ .

على سرير ملكه ، فارتعد ووقع ميتاً ، وذلك يوم الخميس بين الظهر والعصر العشرين من شهر ربيع الأول سنة سبع وخمس مئة[١] » .

ويعلق السبكى على ذلك بقوله « ولعل ذلك من الله مقابلة لقوة نفسه » . إلا أن بعض المراجع أوضح سبب وفاته ، فقد نقل ياقوت عن العماد الأصبهانى قوله : «الأبيوردى تولى فى آخر عمره أشراف مملكة السلطان محمد بن ملكشاه ، فسقوه السم وهو واقف عند سرير السلطان ، فخانته رجلاه فسقط وحمل إلى منزله »[٢] . واتفقت التراجم جميعاً على موته مسموماً بأصفهان حيث « صلى عليه فى الجامع العتيق بها »[٣] .

ووقع فى تاريخ الوفاة غلط ولبس :

ذكر صاحب الوافى سنة وفاته مرتين ، فقال فى الأولى « توفى سنة ثمان وخمس مئة[٤] » ، وصحح ذلك فى الثانية فذكر سنة وفاته الصحيحة بقوله « توفى بأصبهان سنة سبع وخمس مئة[٥] » .

وأما اللبس فما وقع فى طبعات وفيات الأعيان[٦] من أن وفاته كانت سنة ٥٥٧ بدلا من سنة ٥٠٧ . وقد تنبه إلى هذا الخطأ عدد من مؤرخى الأدب وأصحاب كتب التراجم الحديثة[٧] . وإنما قلنا بوقوع هذا الخطأ فى طبعات الوفيات لننزه ابن خلكان عن الوقوع فيه لما يلى :

---

(١) طبقات الشافعية ٤ : ٦٣ ، وبغية الوعاة ١ : ٤٠ ، وروضات الجنات ٦٢٤ .

(٢) معجم الأدباء ١٧ : ٢٣٨ .

(٣) الوفيات ٤ : ٤٤٩ ، والإنباه ٣ : ٥٢ .

(٤) ٢ : ٩١ .

(٥) ٢ : ٩٣ .

(٦) طبعة بولاق والميمنية والسعادة (تحقيق محيى الدين عبد الحميد) ودار الثقافة (تحقيق الدكتور إحسان عباس) .

(٧) مثل بروكلمان فى دائرة المعارف الإسلامية ٧ : ٧٠ ، والزركلى فى الأعلام ٦ : ٢٠٩ .

١ – نص ابن خلكان على وفاة الشاعر سنة ٥٠٧ بدليل أن هناك نقولا عن الوفيات قبل عصر الطباعة ذكرت وفاته فى السنة المذكورة .

(أ) فقد أدرجه صاحب الشذرات الذى أورد خلاصة حياته منقولة عن ابن خلكان ، فى عداد المتوفين تلك السنة ، وختمها بقوله : « انتهى ما أورده ابن خلكان ملخصاً »[1] .

(ب) فى الورقة الثانية من مخطوطة ديوان الشاعر (العراقيات) الموجودة فى المتحف البريطانى ملخص لحياة الشاعر آخره « وكانت وفاته يوم الخميس بين الظهر والعصر من شهر ربيع الأول سنة ٥٠٧ مسموماً بأصبهان .. نقل ذلك ابن خلكان » .

(حـ) وفى صفحة عنوان مخطوطة الديوان نفسه فى مكتبة ليدن ملخص لحياته أيضاً ، فيه « وكانت وفاته يوم الخميس بين الظهر والعصر العشرين من ربيع الأول سنة سبع وخمسمائة بأصبهان . نقل من وفيات الأعيان لابن خلكان » .

٢ – أن ابن خلكان الذى حدد ساعة الوفاة واليوم والشهر بالدقة التى ذكرناها ، لا يمكن عقلا أن يخطئ فى تحديد السنة ، وأن يكون خطؤه فاحشاً يصل إلى خمسين سنة !

فما ورد إذاً فى طبعات الوفيات من خطأ فى تحديد سنة الوفاة ، غلط مطبعى أو نسخى ناشئ عن التباس فى قراءة سنة (٥٠٧) ، لتكوير الصفر وتضخيمه من قبل أحد الناسخين .

---

(١) الشذرات ٤ : ٢٠ .

وبعد أن فندنا بالنصوص احتمال وقوع ابن خلكان فى خطأ تقدير سنة وفاة الشاعر ، نفند بالقرائن والحقائق احتمال وفاته سنة ٥٥٧ :

١ ــ تدل مناسبة إحدى قصائد الديوان [1] على أنها قيلت قبيل وفاة الشاعر ، وبعيد انصرافه من حضرة السلطان السلجوقى محمد بن ملكشاه . ومن المعلوم أن السلطان محمداً تولى السلطنة بين سنتى ٤٩٨ و ٥١١ ، مما يقطع بوفاة الأبيوردى قبل سنة ٥١١ .

٢ ــ عاصر الشاعر الخليفتين العباسيين المقتدى (٤٤٨ ــ ٤٨٧) والمستظهر (٤٧٠ ــ ٥١٢) . ومع أن شاعريته لازمته حتى أنفاسه الأخيرة ، فقد خلا ديوانه من مدح سواهما . ومن الملاحظ أن ممدوحيه الذين عرفنا جانباً من سيرتهم ، تركزت وفاتهم حول نهاية القرن الخامس (فمثلا قتل نظام الملك سنة ٤٨٥ ، وقتل ابنه مؤيد الملك سنة ٤٩٥ ، وقتل صدقة بن دبيس الأسدى سنة ٥٠١) . ولو عاش خمسين سنة أخرى لحوى ديوانه أماديح الخلفاء والوزراء والسلاطين فى الفترة التى تشغل النصف الأول من القرن السادس .

فهل قضى البلبل الصداح الذى لم يتعود الصمت ، نصف قرن كاملا ، صامتاً ؟ أو ضاع شعر هذه الفترة المزعومة ؟ هذا ما لا نميل إليه .

أسعفنا الحظ فى العثور على آخر قصائد الشاعر ، فقد سلمت لنا أبيات نظمها بعد أن سرى السم وأحس بدنو الأجل ، وكأنه يرثى فيها نفسه ويودع حياته ، ويعتذر للسلطان عما حصل له فى حضرته :

---

(١) القصيدة ٢٠ من الزيادات . وانظر معجم الأدباء ٣٧ : ٢٣٨ .

وقفنا بحيث العـــدل مـــدّ رواقه
وخيّـــم فى أَرجائـــه الجـود والباس

وفوق السريـــر ابن الملوك محمـد
تخـــر له من فرط هيبتـــه الناس

فخامرنى ما خانـــنى قدمى لـــــه
وإن ردّ عنى نفرة الجـــأْش إيناس

لئن عشـــرت رجلى فليس لِمِقْولى
عثار ، وكم زلّت أَفاضل أَكياس[1]

وأسعدتنا الفرصة التى هيأها لنا ياقوت بالوقوف على قصيدة رثى فيها الشاعر ، فقد ختم ياقوت ترجمة الأبيوردى بما هذا نصه « قال عبيد الله التيمى : أنشدنى أبو إسحاق يحيى بن إسماعيل المنشئ الطغرائى قال : سمعت والدى ينشد لنفسه مرثية للأبيوردى :

إن ساغَ بَعـــدكَ لى ماءٌ على ظمإٍ
فلا تجـــرّعتُ غير الصّاب والصَّبِر
أَو إن نظرتُ من الدنيا إلى حَسَنٍ
مـــذ غبتَ عنّى فلا مُتّعتُ بالنظر

---

(١) زيادات الديوان – الأبيات ٢ ، ٣ ، ٤، ٦ من القصيدة ٢٠ . وانظر معجم الأدباء ١٧ : ٢٣٨ – ٢٣٩ .

صحبْتَنِى والشبابَ الغضَّ ثم مضى
كما مضيتَ فمـــا فى العيش من وطر

هبنى بلغتُ من الأعمـــار أطولَها
أو انتهيتُ إلى آمالَ الكُبَـــــــر

فكيف لى بشبابٍ لا ارتجاع لـــه
أم أين أنت فما لى منك من خبر

سبقتُمانى ولـــو خُيّرتُ بَعـــدكما
لكنتُ أول لحّاقٍ على الأثـــر »[1]

---

(١) معجم الأدباء ١٧ : ٢٦٦ . والأبيات فى ديوان الطغرائى ص ٨٤ ، مع اختلاف قليل فى بعض الألفاظ ، ودون نص على أنها فى رثاء الأبيوردى .

الباب الثالث

النتاج

الفصل الأول : الأبيوردى الشاعر :

١ ــ الأغراض الشعرية : نظرة عامة

المدح

الفخر والشكوى

الغزل

خاتمة

٢ ــ الصورة الشعرية

٣ ــ دراسة مقارنة

الفصل الثانى : الأبيوردى الناثر :

١ ــ تمهيد

٢ ــ أنموذج من نثره

٣ ــ أنموذج من تأليفه

الفصل الأول

الأبيوردى الشاعر

١

الأغراض الشعرية

(أ) نظرة عامة :

لا تختص الأصالة الشعرية بزمان دون آخر ، ولا يختص بها شعراء دون آخرين فهى حصيلة عوامل يسهم الشاعر فى تكوينها مساهمة فعالة . ويمكن أن يحقق للشاعر أصالته إذا حقق الثقافة العميقة واتصل بأنموذجات الشعر السابقة اتصالا وثيقاً ، بالإضافة إلى الإلهام والموهبة التى هى شىء فطرى : فأصالة الشاعر مستمدة إلى حد بعيد من ثقافته فى مختلف فنون اللغة وعلومها وأدواتها ، وهى الخلفية التى تمد الشاعر ببليغ الكلام وترفده بفصيح البيان ؛ والاتصال بالأنموذجات الشعرية شرط لازم لتكوين الأصالة الشعرية ، فالشاعر لا يبنى فى الهواء ولكنه يستند إلى قاعدة من الخبرات الشعرية لسابقيه لأن الشعر كما هو معروف حلقات متصلة آخذ بعضها ببعض .

وشاعرنا الأبيوردى حقق لنفسه هذين العاملين كأحسن ما يكون التحقيق ، فقد جمع علوم عصره ومعارفه ووعاها وصنف فيها المصنفات العديدة[1] . ورأيناه مولعاً بأشعار السابقين وجمعها واختيارها حتى صنع منها مجموعة على غرار حماسة أبى تمام[2] ، فساعده تذوق الشعر وتميز جيده

---

(١) انظر « ثقافته ومعارفه » فى الباب السابق .

(٢) انظر آثاره » فى الباب نفسه .

من رديئه على تنمية حس الإبداع الشعرى لديه ، وتجلى بعض ذلك فيما علق به على بعض شعره بمثل قوله : « ما أظننى سبقت إلى هذا المعنى »[١] . ويمكن أن نستنتج من أمثال هذه العبارات التى صدرت عن الناظم وتكررت فى حواشى الديوان أمرين : أولهما أن اطلاعه على أشعار السابقين وضعه فى موضع مكنه من إصدار مثل هذا الحكم . وثانيهما أنه تسلم زمام المبادرة والإبداع فى كثير من أغراضه الشعرية ، وخرج من دائرة التقليد والمحاكاة التى قلما جرؤ أحد من معاصريه على الخروج منها .

ودعته أصالته إلى أن يسلك فى شعره مسلكاً خاصاً . فقد أبان عن منهجه فى مقدمة ديوانه بقوله : «المدح طعمة الوقاح ، وفى النسيب بالعفيفة ابتهار ، والهجاء يستثير عليك اللئيم ، وقد لهجت بالشعر فانشر به مناقب قومك ، وإن أجئت إلى المدح فقله كما قال الكندى :

وحططتُ رحـــلى فى بنى ثعـــل
إنَّ الكـــرام للكريم محـــل»[٢]

وكرر ذلك فى غير موضع من ديوانه كقوله :

وشعـــرُ مثلى ــ وخيرُ القول أَصْدَقُهُ
ما كان يفتـــر عن فخـــر وعن غزل
أَما الهجاء فلا أَرضى به كـــرماً
والمـــدحُ إن قلتُهُ فالمجدُ يغضبُ لى

---

(١) انظر حواشى البيتين ١٣ ، ١٤ من القصيدة ٣٠ فى الديوان .
(٢) ديوان امرئ القيس ص ١٩٩ .

وكيف أَمدح أَقـــواماً أَوائلهـــم
كانوا لأَسلافنا الماضين كالخـــول[1]

ومع أنه وجه ديوانه فعلا نحو الفخر والغزل فشغلا منه حيزاً كبيراً ، إلا أنه لم يقصره عليهما كما قال ، بل نظم فى كل الأغراض الشعرية ، ولكنه كان حريصاً على ألا يسترسل فى الأغراض التى ذمها ، فالهجاء ليس له فى الديوان شىء يذكر لأنه اقتصر على عدد محدود من المقطعات . أما المدح وهو صلب الديوان وغرر قصائده ، فكان يتحرى فيه ممدوحيه ، ويسمو بأماديحه لهم فيحيلها فخراً بنفسه وقومه . وقد أفصح عن ذلك فى بعض أشعاره فقال :

ولم أَنظـــم الشعر عُجْباً به
ولم أَمتـــدح أَحداً عن أَربْ
ولا هـــزَّنى طمـــعٌ للقـــريض
ولكنـــه تـــــرجمان الأَدب
وللفخـــر أُعنى بـــــه لا الغنى
فعن كِسْرِ بيتىَ جِيبَ العرب[2]

وحتى فى أماديحه لم يسف إسفاف معاصريه أو يستجد استجداءهم ، فنى حين نجد الطغرائى مثلا يطالب ممدوحه صراحة بتنويله صلته فيخاطبه بقوله :

---

(١) زيادات الديوان – الأبيات ٣ – ٥ من القصيدة ١٤ .
(٢) الديوان – الأبيات ٣٢ – ١٤ من القصيدة ٩٩ .

فأنت الذى جلّلتنى منك أنعماً
لها موقعٌ بين الأنام جليل
منيـــلٌ إذا ما كان منىَ خدمةٌ
وإن سبقتْ لى عثرةٌ فمُقيـل
فعُدْ بى إلى الوصل الذى كنتَ واصلاً
جناحى به ، إنَّ الكريم وَصول[1]

تجد الأبيوردى يخاطب الممدوح نفسه، فيستنصره على أحد خصومه وينفى ما يتوقع الممدوح مطالبته به :

ولا تحسبنَّ المال ممـــا يروقنى
فقِدْماً سمونا للغنى من جهاته
ولى همّـة تهفو إلى كل سؤدد
تَفَـرّغَ آبائى ذرا هضباتـــــه
وتبغى لديك الانتصار من امرئ
إذا عُدَّ مجدٌ كان فى أُخرياته[2]

ونتناول الآن أهم أغراض الديوان بشىء من التفصيل :

---

(١) من قصيدة فى مدح مؤيد الملك بن نظام الملك . ديوان الطغرائى ص ٢١ .
(٢) الديوان – الأبيات ١٢ – ١٤ من القصيدة ٩٤ .

(ب) المـديح :

(الترتيب الزمنى ـ معانى المدح ـ ظواهر مدحية ـ التأثر بالآخرين) .

مدح الشاعر خليفتى عصره ووزراءهما ووزراء السلاطين ، ومدح بعض السلاطين ، ومدح كذلك أصدقاءه من أمراء العرب الذين اتصل بهم من المزيديين والعقيليين وغيرهم. والصنف الأخير الذى مدحه أقاربه وذووه.

وفى محاولة لترتيب قصائده المدحية ترتيباً زمنياً وإعادتها إلى التواريخ التى قيلت فيها استطعنا إعادة عدد منها إلى تاريخ نظمه الصحيح ، وإعادة بعضها الآخر إلى تاريخه التقريبى . وكانت ضوابط ذلك الدلالات التاريخية والأسماء والحوادث التى ذكرت فى القصائد ، فقد عدنا بتلك الأحداث إلى مظانها لمعرفة أوقات وقوعها ، وعدنا بأسماء الرجال وعلاقاتهم ومناصبهم إلى تواريخ توليهم تلك المناصب ونشوء تلك العلاقات . وقاد الربط بين ذلك كله إلى بعض الاستنتاجات التى ساعدت على تحديد بعض التواريخ .

وبرد أكثر قصائد المديح إلى تاريخ نظمها نكون قد عدنا بقصائد الديوان الرئيسة إلى ترتيبها التاريخى . أما سائر القصائد والمقطعات الأخرى فلم يمكن الوقوف على الزمان الذى قيلت فيه لأنها لم تتضمن إشارة واضحة إلى حادثة معينة . وهذا ثبت لتواريخ القصائد التى أمكن تحديدها :

□ نظمت القصائد التى مدح فيها الشاعر الخليفة المقتدى[1] .

بين سنة ٤٧٥ ، وهى السنة التى قدرنا انتقال الشاعر فيها من موطنه الأصلى فى خراسان إلى بغداد[2] .

---

(١) أرقامها التى تحملها فى الديوان : ٣ ، ١١ ، ١٥ ، ٢١ ، ٣٧ ، ٤٨ ، ٥٧ ، ٧٠ ، ٧٥ ، ٨٤ .

(٢) انظر أطوار حياته فى الباب الثانى من هذه الدراسة .

وسنة ٤٨٧ ، وهى سنة وفاة المقتدى .

— أما القصيدة التى مدح فيها الخليفة المذكور وهنأه بمولود لابنه المستظهر الملقب بذخر الدين (القصيدة رقم ٢) ، فقد نظمت

بين سنة ٤٨٥ ، وهى سنة بلوغ المستظهر الخامسة عشرة[١]

وسنة ٤٨٧ ، تاريخ وفاة المقتدى وتولية المستظهر .

□ بعض القصائد التى مدح بها المستظهر[٢] .

قيلت بين ٤٨٧ سنة مبايعة الممدوح بالخلافة
و ٥٠٧ سنة وفاة الشاعر

ويبقى فى مدحه قصيدتان

— الأولى (القصيدة ١٢) نظمت سنة ٤٨٧ بمناسبة مبايعته وفى تهنئته بالخلافة .

— والثانية (القصيدة ٥) ويرجح نظمها فى أوائل خلافته قريباً من تاريخ القصيدة السابقة أو بعدها بقليل لأن فيها ما يشير إلى شباب الخليفة ، وهو قوله :

بلغ المـدى والسنُّ فى غُلَوائها
خضل الصّبا متكهِّـل الآراء[٣]

□ مدح الشاعر السلطان السلجوقى محمد بن ملكشاه بثلاث قصائد نظمها فى آخر حياته (بين سنتى ٥٠٠ و ٥٠٧) ، بعد جمع الديوان ، لأنها جاءت كلها فى زياداته المخطوطة .

---

(١) ولد سنة ٤٧٠ فتكون سنة ٤٨٥ أقرب سن مناسبة للأبوة .
(٢) القصائد ذوات الأرقام ٤ ، ٢٢ ، ٢٩ .
(٣) البيت ٢٦ .

– والقصيدة الأولى التى مدحه بها (الزيادات – ١٨) نظمت فى همذان بعد خروج الشاعر من بغداد كما تشير ديباجة القصيدة[١] .

– والقصيدة الثانية (الزيادات – ١٩) طمست ديباجتها فلم يعرف الممدوح بها ، لكن ذكر فى أحد أبياتها أحد ألقاب السلطان محمد ، فدل على أن القصيدة فى مدحه . والبيت هو :

فلى من غياث الدين نعمـاءُ ثرّةٌ
يقطّع أنفاسَ الحيا دونَها الجهدُ[٢]

– القصيدة الأخيرة فى مدحه (الزيادات – ٢٠) قيلت سنة ٥٠٧ قبيل وفاة الشاعر[٣] .

□ نظمت القصيدة (٣٤) التى مدح فيها الشاعر منصور بن دبيس أمير الحلة بين سنة ٤٧٥ وهو وقت قدوم الشاعر بغداد وبدء اتصالاته بالكبراء والأمراء . وسنة ٤٧٩ وهو تاريخ وفاة الممدوح .

□ تجاوزت قصائده فى مدح صدقة بن منصور سنة ٤٧٩ ، وهى سنة توليه الإمارة .

– فالقصيدة (١٠٨) التى نظمها فى العراق قبل أن يلتقى الأمير قيلت بعد تولى صدقة الإمارة سنة ٤٧٩ وقبل زيارة الشاعر له فى الحلة التى بنيت سنة ٤٨٥ .

– والقصيدة (٧) نظمت حوالى سنة ٤٨٥ ، وهى أولى القصائد التى نظمها الشاعر فى مدح الأمير لدى زيارته فى حلته .

---

(١) فى الديباجة : والقصيدة خارجة عن الديوان إذ تهيأ نظمها بعد جمعه بهمذان .

(٢) البيت ٢٠ .

(٣) فى ديباجة القصيدة فى معجم الأدباء ١٧ : ٢٣٨ « . . فسقوه السم وهو واقف عند سرير السلطان ، فخانته رجلاه فسقط وحمل إلى منزله فقال » .

– فى القصيدة (٤٩) البيت الآتى :

أقبل بلوغ الأربعين تسومنى
صروف الليالى أن أشيب وأهرما [١]

وفيه دلالة على نظم القصيدة فى حدود سنة ٤٩٧ على تقدير مولد الشاعر سنة ٤٥٧ [٢] .

– والقصيدة (١٧) نظمت بين زيارة الشاعر الأمير بعد سنة ٤٨٥ ، وموت الأمير سنة ٥٠١ .

□ وقصائده فى مدح نظام الملك أربع :

– القصيدة (٢٤) وهى « من أول قوله » كما فى ديباجتها ، قيلت سنة ٤٧٩ حين سار السلطان ملكشاه والى قلعة جعبر وملكها [٣] .

– والقصيدة (٥٩) نظمت فى وقت مقارب لأنها « مما قاله فى صباه » كما تنص ديباجتها أيضاً .

– والقصيدتان الأخريان فى مدحه (٣٢ ، ٨٢) نظمها بين تاريخ القصيدتين السابقتين وسنة ٤٨٥ ، وهى تاريخ موت نظام الملك .

□ وله فى مدح مؤيد الملك بن نظام الملك ثلاث قصائد :

– واحدة (القصيدة ٦٢) نظمها سنة ٤٩٢ فى مدح الوزير الذى كان وراء انتصار محمد بن ملكشاه على أخيه بركيارق وخلعه من السلطة فى إحدى جولات الصراع بينهما .

– واثنتان (٣٥ ، ٩٤) استجار فيهما الشاعر بمؤيد الملك من ابن جهير قبل سنة ٤٩٣ ، حين كان وزير الخليفة فى أوجه ، وقبل عزله وقتله فى تلك السنة .

---

(١) البيت ٢٠

(٢) انظر : مولده فى الباب الثانى من هذه الدراسة .

(٣) انظر ديباجة القصيدة .

□ وفى الديوان قصيدتان (٦٥ ، ٣٨) فى مدح عز الملك بن نظام الملك .

– صرح فى الأولى باسم الممدوح ، ونظمها لدى تقلده وزارة السلطان بركيارق سنة ٤٨٧ .

– ولم يصرح فى الثانية باسمه ولكن بعض أبياتها دل عليه وهو قوله :

والخيـــل عابسة يعتادها مرح
إذا امتطاها نظام الدين مبتسما[1]

و « نظام الدين » من ألقاب الوزير . ويعود نظمها إلى ما بعد سنة ٤٨٧ .

□ ومدح الشاعر الوزير أحمد بن الحسن بن على (نظام الملك الابن) بمدحيتين :

– هنأه فى الأولى (القصيدة ٨٠) بتولى وزارة السلطان محمد بن ملكشاه سنة ٥٠٠[2] .

– وقدم إليه الثانية (القصيدة ٧٢) فى أثناء فترة وزارته بعد تلك السنة .

وهناك بعض قصائد مدحية أمكن تحديد تواريخها :

---

(١) البيت ٤ .

(٢) انظر تولية الوزير وزارة السلطان محمد فى ابن الأثير ١٠ : ١٦٤ . وقد غلط الدكتور على جواد الطاهر فى كتابه : الشعر العربى فى العراق وبلاد العجم فى العصر السلجوقى (٢ : ٤٢) حين جعل هذه القصيدة فى تهنئة ضياء الملك بن نظامه بالوزارة ، وأورد أحد أبياتها (البيت ٢٩) :

وقد ولهت شوقاً إليه وزارة لها فى بنى إسحاق مثوى ومنزل

ولا يشير البيت إلى ضياء الملك بالضرورة ، لأن عدداً من أولاد نظام الملك تسنم الوزارة . والقصيدة فى مدح أحمد بن الحسن بن على وهو ابن نظام الملك الذى ورث عن أبيه ألقابه (نظام الملك ، قوام الدين ، صدر الإسلام) . ويصحح هذا ديباجة القصيدة فى الديوان وبيت فيها ذكر فيه اسم الممدوح (البيت ٢٣) :

فلم ندر إذ أمت بنا باب أحمد أنحن إلى ناديه أم هى أعجل

- مدح الشاعر فى القصيدة (٢٠) مستوفى المملكة لتوليه عرض مرثية على السلطان ملكشاه فى ولد له مات سنة ٤٨٠ .

- نظم القصيدة (٢٥) حوالى سنة ٤٨٢ فى مدح أحد أصدقائه[١] .

- اعتذر فى القصيدة (٣٠) إلى الخليفة فى مفارقة بغداد . ونظمها يعيد مفارقتها وقبل سنة ٤٩٨ حيث عاد إليها متولياً خزانة المدرسة النظامية فيها[٢] .

- نظم القصيدة (٣٣) عن مدح بعض أصدقائه قبل خروجه من بعداد . وفى القصيدة ما يدل على وجوده فيها :

فها أنا فى العراق نجيّ عِزٍّ
وَإِلْفُ كرامةٍ وحليف رفْـدِ[٣]

- هنأ فى القصيدة (٧٨) بعض أصدقائه بخلعة الخلافة . ودل بيت من القصيدة على انتسابها لخلافة المقتدى :

فـــزاده المقتدى بالله تكرمةً
كَسَتْه بُرْدَ الشباب الناضر الخَضِل[٤]

ونظمت إذاً بين سنتى ٤٧٥ و ٤٨٧ ، وهما تاريخ قدوم الشاعر إلى بغداد وموت المقتدى .

---

(١) انظر ديباجة القصيدة وحاشيتها .
(٢) انظر أطوار حياته فى الباب الثانى من هذه الدراسة ، ومعجم الأدباء ١٧ : ٢٣٧ .
(٣) البيت ٢٤ .
(٤) البيت ١٨ .

– القصيدة (٩٠) نظمها فى مدح أحد أصدقائه بعد موت وزير بركيارق عبد الجليل ابن على سنة ٤٩٥ [١] .

---

(١) انظر ديباجة القصيدة وحاشيتها .

وهذه بعض القصائد القليلة غير المدحية التى أمكن معرفة سنى نظمها :

– نظمت القصيدة (١٩) فى رثاء أحمد بن ملكشاه سنة ٤٨٠ .

– قيلت القصيدة (٤٢) فى رثاء جعفر بن المقتدى سنة ٤٨٦ .

– نظمت القصيدة (٦٠) فى الشكوى بعد مفارقة بغداد . وفيها ما يشير إلى ذلك والبيتان ٢٦ ، ٢٩) :

أكل يوم نوى تشق الدموع بها إلى غوارب تفريهن كيران

فيا سقى الله زوراء العراق حيا تروى بشؤبوبه قور وغيطان

– القصيدة (٦٧) فى معارضة أرجوزة للعجاج ، نظمت فى مدينة السلام قبل خروجه منها .

– القصيدة (٧٣) كتب بها إلى أصدقائه ببغداد من مستقره بأصبهان . ونظمها بعد خروجه .

– القصيدة (٨٩) نظمت فى الشكوى من كتاب أمراء الأتراك بعد وفاة نظام الملك سنة ٤٨٥ ، فى ديباجتها « ولم يحترم الأتراك بعد نظام الملك رحمه الله من ترتب فى منصب الوزارة » .

– القصيدتان (٩٧ . ٩٨) اللتان نظمهما فى التماس دار من الخلافة ، والاعتذار للخليفة عن قطعة أرض وهبت له ، نظمتا بعد تولية المستظهر (سنة ٤٨٧) وقبل خروج الشاعر من بغداد (سنة ٤٩٥) .

– القصيدة (١٢١) قالها فى آخر حياته حين عرض عليه بعض الوزراء الكتابة ، لقوله فى مطلعها :

خليلى إن العمر ودعت شرخه وما فى مشيبى من تلاف لفارط

– القصيدة (١٧ – الزيادات) قيلت فى رثاء الإمام الغزالى سنة وفاته (٥٠٥) .

– القصيدة (٣٢ – الزيادات) قيلت سنة ٤٩٢ فى بكاء بيت المقدس ، وسقوطه بيد الصليبين .

– أما النجديات فقد نظمت بعد العراقيات بفترة طويلة ، ونص على ذلك فى مقدمة النجديات . وفصل بين نظم العراقيات والنجديات « صدود تراخى أمده ، وتجاف تطاولت مدده » . وما دامت العراقيات حصيلة الأربعين كما ذكر فى مقدمتها ، ومع تقدير هذه المدة المتطاولة تكون النجديات من نظم السنوات الأخيرة من حياة الشاعر ، ولعلها بين سنتى ٥٠٠ و ٥٠٧ .

يلاحظ من هذا الثبت التاريخى الطويل ، ومن استعراض موضوعات قصائد الديوان أن المدح شغل منه الحيز الأكبر . وأن مدحيات الشاعر استغرقت أكثر ديوانه ، وأن هذه المدحيات هيأت له أسباب الاتصال بأصناف من علية القوم وكبرائهم مختلفة مراتبهم ومشاربهم . فقد مدح خليفتى عصره المقتدى والمستظهر وبعض وزرائهما ، ووزراء السلاطين السلاجقة ، ومدح السلاطين محمد بن ملكشاه ، ومدح أيضاً عددا من أمراء العرب وأعيانهم ، ونفراً من أصدقائه ، وانتهى إلى مدح أهله وأقربائه .

ولو نظرنا فيما مدح به الشاعر هؤلاء لوجدنا مادة واحدة كان يستعبرها لإضفائها على أكثر من ممدوح ، مع مراعاة فروق المنصب وتقلب الأحوال فكل ممدوحيه اتصفوا بالشجاعة ، وبلغوا من الجود غايته ، وكلهم سامى الهمة ثابت الرأى . ونمثل لذلك بالمنزلة التى أنزلها الخليفة المستظهر فى إحدى مدحياته بقوله :

يا خير من بَشَّرتْ بعد النبي بـــه
عدنانُ وادّرعَتْ عِزَّابه مُضَرُ[1]

وهى المنزلة نفسها التى خص بها السلطان السلجوقى محمداً حين جعله خير الناس بعد النبى ، بقوله :

فيممتُ خـــيرَ الناس إلا محمداً
قسيمَ أمير المؤمنين محمدا[2]

---

(١) الديوان – البيت ٥ من القصيدة ٩٧ .
(٢) زيادات الديوان – البيت ١٩ من القصيدة ١٨ .

ومثل هذا كثير فى ديوانه.

وأبرز المعانى التى ترددت فى مدائحه المعانى السائرة التى تناولها الشعراء عادة من شجاعة وكرم ورفعة نسب ورجاحة رأى . . ومما طرقه بكثرة ما كان يشيد فيه بنسب الممدوح أن كان ذا نسب ، صنعه فى مدح الخليفتين وأمير الحلة المزيدية[1] ، وبمجده التليد أن كان من أربابه مثل ما مدح به بعض أبناء نظام الملك الذين ورثوا الملك والمجد[2]. ولكن ما امتاز به شاعرنا قدرته الفائقة على صياغة المعنى الواحد بأساليب فصيحة مختلفة وقوالب متعددة فى حلل ناصعة من البيان تزينه وتقربه إلى النفس . ونذكر هنا أنموذجين لما صور به شجاعة اثنين من ممدوحيه ؛ قال فى أحد أقاربه :

فتى تورق السمر اللِّدانُ بكفِّـــــه
وإن دبّ فى أَطرافهنَّ ذبولهـــــا

وتغشى الوغى بيضا حداداً سيوفـه
فترجـــــعَ حمراً باديات فـــلولها

---

(١) قال فى مدح الخليفة المستظهر (الديوان – البيت ٣٥ من القصيدة ٥) .

ملك نمت فى الأنبياء فروعه   وزكت به الأعراق فى الخلفاء

وأشاد فى مدح صدقة بن منصور الأسدى بعراقة نسبه فى بضعة أبيات (الديوان – الأبيات ٥٨ – ٦٥ من القصيدة ٧) حتى وصل إلى أبيه فقال (البيتان ٦٦ – ٦٧) :

وما زال منصور ينيف على الورى   به الشرف الوضاح والحسب الغمر
فسرت على آثاره متمهلا   ولم يختلف فى السعى بينكما النجر

(٢) كقوله فى مؤيد الملك (الأبيات ٣ ، ٥ ، ٦ من القصيدة ٣٥) :

أبوك وأنت السابقان إلى العلا   على شم منهن حزم ونائل
وهل يلد الضرغام إلا شبيهه   وينجب إلا الأكرمون الأماثل
فليت أبا لا يورث الفخر عاقر   وأما إذا لم تعقب المجد حائل

ويوقظ وسنانَ التـــراب يُضَمَّر
تُـــوارى بشؤبوب النجيع حجولها[١]

وقال فى بعض سروات العرب :

لكنهـــم يستشيرون الظُّبـــا غضباً
ويجعلون لهـــا الهامات أغمـــادا
تكسى إذا النقـــع أرخى من ملاءَته
فى باحة الموت أَرواحاً وأَجسادا
لا يخضعون لخطب إن أَلـــمّ بهم
وهـــل تهز الرياح الهـــوج أَطوادا ؟[٢]

ونلاحظ فى ديوان الشاعر جملة من الظواهر طبعت مدحياته نذكرها فما يلى :

١ ــ الصفة التى تطبع مدحيات الشاعر إدلاله بشعره واعتداده به اعتداداً لا حدود له .

يقول مثلا فى مخاطبة أحد ممدوحيه :

وتصفَّح الْكَلِـــمَ التى وصلتْ بها
ودُرر البـــلاغة شدةٌ وَلِيـــان

(١) الديوان ــ الأبيات ٢٧ ــ ٢٩ من القصيدة ٨٦ .
(٢) الديوان ــ الأبيات ٢٦ ــ ٢٨ من القصيدة ١٠

تلقى إلىّ عنانهـــا عن طاعـــة
ولهـــا على المتشاعـــرين حِران
والشعـــرُ راض أبيّـــهُ لى مِقْوَلٌ
ذَرِبُ الشَّبا وفصاحـــة وبيان[1]

واعتاد فى بعض مدائحه أن يزين خصال الممدوح بشعره ، ويخلد أعماله ببقائه على الأيام ، وينشرها بسيرورته بين الناس . قال يخاطب نظام الملك :

ومدحة ذهبتْ فى الأرض شاردة
تُهـدى معـــدٌّ قوافيها إلى اليمن
فانظـــر إلىّ بعينَىْ ناقدٍ يقـــظ
تجذبْ إليك بضبْعَىْ شاعرٍ فَطِن
ما كلُّ من قال شعراً فيك سيّره
وليس كلّ كلامٍ جيبَ عن لَسَن[2]

٢ ــ أدخل الشاعر فى مدائحه عنصر المبالغة ، فلقد أضفى على ممدوحيه جملة من الصفات والأعمال بدوافع مختلفة ، فجعل من المقتدى الخليفة العادل وحامى الإسلام والمستأمن على الرعية :

---

(١) الديوان ــ الأبيات ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٥ من القصيدة ٤٠ .
(٢) الديوان ــ الأبيات ٢٦ ــ ٢٨ من القصيدة ٣٢ .

حمى بيضة الإسلام فاستحكمتْ به
عُراه وقد شُدّتْ لديه بأمراس
يلوذ الرعايا آمنين بعزّه
لياذ عتاق الطير بالجبل الراسى
ويُلحفهم ظلًّا من العدل وارفاً
ويرعاهُم بالنائل الْغَمْرِ والباس[1]

وجعل المستظهر فى إحدى قصائده خير الخلفاء متجاوزاً أعلام العباسيين، ومضفياً صفاتهم عليه، فى حشد ضخم من المروءات والأمجاد فى سبعة عشر بيتاً ختمها بقوله :

أن أثّلوا لك والدنيا بعذرتها
علًا فهذى علا أثّلْتَها أُخر[2]

والتاريخ يحدثنا أن خلفاء العصر لم يكن لهم من الأمر شيء. ومرد هذه المبالغة فيما نحسب أن الشعراء — وقد رأوا عجز الخلفاء وفراغ أيديهم — لم يجدوا أمامهم إلا إضفاء شيء من الخيال على أعمال وأمجاد وهمية تتناسب ومقام الممدوح، ولا تكاد قصيدة مدحية تخلو من مثل ما مثلنا به.

وتجاوز الأمر ذلك حتى صار يعزى إلى الخليفة أو الوزير أمجاد غيره كما فعل الأبيوردى فى نسبة استنقاذ أنطاكية من أيدى الروم وفتح قلعة جعبر

---

(١) الديوان — الأبيات ١٩ — ٢٣ من القصيدة ٧٠.
(٢) الديوان — البيت ٢٤ من القصيدة ٩٧.

إلى نظام الملك ، مع أن فاتح القلعة هو السلطان ملكشاه ، ومستنقذ أنطاكية أحد الأمراء من أقربائه[١] .

يقول مخاطباً الوزير :

فقشرتَ بالعضب الجـــراز قَشَيرها
وقلعتَ بالأَسَلات قلعـــة جعبـــر

وفتحت أنطاكيّة الـــروم التى
نشزتْ معاقِلُهـــا على الإسكنـــدر[٢]

ولهذا السلوك خطورة بالغة ، فمثل هذه المبالغة ونسبة الأعمال إلى غير أصحابها تقلل من الأهمية التاريخية لشعر الشاعر ، وتحملنا على الشك فى أقواله جملة ، والنظر إليها نظرة الريبة والحذر ، والمبالغات الشعرية أمر معروف وسائد على امتداد عصور الشعر ، إلا أن للمبالغات المقبولة أساساً من الحقيقة تستند إليه ، وهذا هو الفرق بين تضخيم حقيقة واقعة وتزيينها بما تجود به خيالات الشعراء ، واختلاق وقائع غير قائمة أصلا ، أو إلصاق الوقائع بغير أصحابها .

٣ ــ علت فى المدح نغمة جديدة بإضافة مدح وزير الخليفة إليه . واتخاذ مدح الوزير تكأة للوصول إلى مدح الخليفة . فكأن الخليفة استنفد كل ما يمكن أن يمدح به حتى صار يمدح بوزيره ، والخليفة راض بذلك مغتبط به . يقول شاعرنا فى مدح وزير المستظهر عميد الدولة ابن جهير الذى تولى البيعة له :

---

(١) انظر ديباجة القصيدة ٢٤ .

(٢) البيتان ٥٢ ، ٢٨ من القصيدة السابقة .

ونضـــــا وزيرك عزمةً عربيةً
نبذتْ إليك الأَمـــــر وهْو وثيق
ودعا لبَيعتِك القُلوب فَلَمْ يَمِلْ
مِنْها إلى أَحَدٍ سِواك فَرِيق
لازال ممدُودَ الرّواق عَليْكُما
ظلٌّ يَقيلُ العِزُّ فِيهِ صَفِيق(١)

٤ – لعل شاعرنا أعف شعراء عصره نفساً وأبعدهم عن الاستجداء بالشعر . فقد وقف من ذلك موقفاً يبين عنه قوله لأحد الممدوحين :

ولولاك لم تخطـــر ببالى قصائــدٌ
هوابطُ فى غورٍ طوالعُ من نجـــد
فهنَّ عذارى مَهْرُها الودّ لا النَّدى
وما كلُّ من يُعزى إلى الشعر يستجدى(٢)

وهو موقف جدير بأن نسجله له إزاء ما عرفناه من شعراء عصره من ذهابهم مذهب التكسب فى المديح .

قلنا إن شاعرنا امتلك القدرة على صياغة معانى المدح فى أشكال مختلفة وتقديمها فى صورة مشرقة وحلل ناصعة . وميزه ذلك بشخصية ذاتية مستقلة

---

(١) الديوان – الأبيات ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٩ من القصيدة ١٢ .
(٢) الديوان – البيتان ٢٦ ، ٢٨ من القصيدة ٥٥ .

فى التعبير والتصوير ، ولكنه لم يحل دون تأثره بأنموذجات معينة . وكانت الأشعار الجاهلية والإسلامية الأولى أبرز ما اتصلت به أساليب الشاعر ومعانيه . ومن أبرز الشعراء الذين تأثر بهم من المحدثين أبو تمام ، ومن أهم المجموعات الشعرية التى تركت آثارها فى ديوانه حماسة أبى تمام . ولعل إعجابه بحماسة الطائى حملته على أن يحذو حذوه فى عمل مجموعة مماثلة من الأشعار المنتخبة[١] .

وتجلى تأثر الأبيوردى خطأ أبى تمام فى عدة مواضع من ديوانه ، منها قوله :

وأبى الديار لقد مشى فيها البلى
وعَفَتْ معالمهـــا سوى أشلاء[٢]

وقد أخذه من قول أبى تمام :

وأبى المنـــازل إنهـــا لشجون
وعلى العجـــومة إنَّها لَتَبين[٣]

فجعل للديار أباً ثم أقسم عليه . ويتضح الأخذ وضوحاً أشد فى قوله :

هيهـــات أن يلـــد الزمان نظيره
إنَّ الـــــزمان بمثله لبخيل[٤]

---

(١) انظر : آثاره فى الباب الثانى من هذه الدراسة .
(٢) الديوان – البيت ١٦ من القصيدة ٥ .
(٣) ديوان أبى تمام ٣ : ٣٢٣ .
(٤) الديوان – البيت ٣٧ من القصيدة ٦٦ .

الذى أخذه من قول أبى تمام :

هيهات لا يأْتى الزمان بمثله
إنَّ الزمان بمثله لبخيل[١]

ومن المعانى التى أخذها عن أبى تمام تشبيه النؤى بالسوار المفصوم بفعل البلى ، قال الأبيوردى :

والنؤىُ أَنْحَلَهُ البِلى فكأَنها
أَهدتْ إليه سوارها المفصوما[٢]

وقال أبو تمام :

أَثافٍ كالخدود لُطمن حزناً
ونؤىٌ مثلما انفصم السِّوار[٣]

والتقى مع عدد من شعراء الحماسة فى بعض شعره ، فقد ألم فى قوله :

ربّما المعاصم ، ظمأَى الخصر لا قِصَرٌ
يزوى عليها ، ولا يزوى بها طول[٤]

بقول الصمة القشيرى :

ومخملةٍ باللحم من دون ثوبها
تطول القصارَ والطوالُ تطولها[٥]

---

(١) ديوانه ٤ : ١٠٢ .
(٢) الديوان – البيت ٧ من القصيدة ٢٥ .
(٣) ديوانه ٢ : ١٥٣ .
(٤) الديوان – البيت ٨ من القصيدة الأولى .
(٥) الحماسة ٣ : ١٣٦٠ .

ولم يقف تأثره السابقين عند أبى تمام وشعراء الحماسة ، بل تجاوزهم إلى عدد من كبار شعراء العصر العباسى ، فظهر فى فخره وغزله ما سنتكلم عليه بعد من أثر المتنبى والشريف الرضى ، وظهرت فى الحكم التى كان يسوقها فى ثنايا مدائحه بين حين وآخر مسحة من حكم المعرى كقوله :

وألبس الخـــلّ تعرى لى شمائله
من الغنى حذر الكاسى من الدّرن[1]

وهو يشبه قول أبى العلاء :

والخـــلّ كالماء يُبدى لى ضمائره
مع الصفاء ، ويخفيها مع الكدر[2]

وظهر أيضاً فى بعض صوره ظلال للبحترى فى شقشقته وأوزانه الموقعة ومطالعه الغزلية الرائقة مثل هذه الأبيات الغزلية لأحد المطالع :

تجنّـــــى علينا طيفها حين أُرسلا
وهل يتجنى الحِبّ إلا ليبخـــلا
أَما علمتْ أَن الهـــوى يستفزّنى
إذا الركب من نحو الجنينة أَقبلا
وأَرتاح للبرق اليمانى صبابـــــةً
وأَنشق خفّاق النسيم تعلّلا[3]

---

(١) الديوان — البيت ١٧ من القصيدة ٣٢ .
(٢) شروح السقط ١ : ١٣٢ .
(٣) الديوان — الأبيات ١ ، ٦ ، ٧ من القصيدة ٦٩ .

وفى المجموع نجد صفة عامة فى المدح تنتظم أصالة الشاعر وهذه الألوان المختلفة من أذواق السابقين وتطبعها بطابع خاص هو نظم الأبيوردى ، ذلك شعر التفوق الذى أضفى عليه الشاعر من روحه واحتفظ بشخصيته فيه .

(ح) الفخر والشكوى :

كان الفخر من أهم الأغراض الشعرية فى هذا العصر ، ومن أكثر ما طرقه الشعراء منها . وقد استمد شاعرنا أصالته فى هذا الفن من مطامحه البعيدة وهمته العالية التى كشفت عن نفسيته وآرائه الاجتماعية ، وفتحت أمامه أبواب الإجادة فيه ، فقد شغل الفخر من ديوانه جزءاً غير يسير ، ولم يأت على نمط واحد فكان يرد أحياناً فى قصائد طويلة ، وأحياناً أكثر فى مقطعات قصيرة ، ووجدناه بين ذلك منبثاً فى ثنايا مدائحه الطويلة .

ماذا ضمن الشاعر فخرياته ، وما هى الآراء التى تبناها فيها ؟ من المعروف أن الشاعر يذكر فى شعره من آرائه ما لا يكرره ، ويذكر منها ما يكرره ويلح عليه حتى يمتاز به ويغدو صورة لشخصيته ويكون مذهباً ثابتاً من مذاهبه . وإذا تصفحنا ديوانه وجدنا جملة من الآراء والموضوعات رددها فى شعره وشارك فى أكثرها أبا الطيب المتنبى (٣٠٣ — ٣٥٤) الذى تناولها قبله . وسيتبين لنا أنه اقتفى أثره فيها فى المعانى والمبانى اقتفاء واضحاً حتى سمحنا لأنفسنا أن نطلق عليه لذلك لقب المتنبى الصغير . وهذه هى أهم الآراء والمذاهب التى استنتجناها من استعراض فخرياتهما مما التقى فيه الشاعران وما انفرد به الأبيوردى ، ومرجعنا فى ذلك ديوان كل منهما وهو مستودع عواطفه النفسية وسجل آرائه وأفكاره الذاتية .

١ — مما يسترعى انتباه قارئ ديوان الأبيوردى اعتداده بنسبه . ويمكن أن نرد أكثر ما جاء فى شعره من الشكاية والفخر إلى رغبته فى أن يوصله

طموحه إلى ما يؤهله نسبه الرفيع وأصوله العريقة ، فإذا شكا الزمان فلأنه لم ينصفه ولم ينوله ما يتفق مع شرف نسبه وعراقة محتده ، وإذا شكا الناس فخر عليهم بنسبه الرفيع ورآهم دونه قدراً ونسباً ، وإذا فخر بعروبته وتعصب لها فلأن له فيها جذوراً عميقة من النسب العربى العريق . . ويختلف فى ذلك كله عن المتنبى اختلافاً ظاهراً ، فقد سكت المتنبى عن ذكر أبيه أو رثائه بكلمة ، وحرص على ألا يذكر نسبه فى شعره أو يذكر أحداً من أجداده ، أو يصرح باسم قبيلة أو عشيرة مما يدل دلالة واضحة على أن أباه لم يكن نابه الشأن بعكس أبى الأبيوردى الذى مدحه بقصيدتين[1] ذكر فيهما مناقبه ، ونوه برئاسته ووجاهته وطيب شمائله ومكانته من الشجاعة والجود . . . ومما فخر فيه بوالده ونسبه قوله :

فقال أَعلمهم بى إنَّ والـــــده
من كانَ يُجهد أَخلاف العلا حَلَبا
ما مات حتى أَقرّ الناس قاطبـــةً
بفضـــله ، وهْو أَعلى خندفٍ نسبا
وذا علامٌ بعيـدٌ صيتـــهُ ولـــه
فصاحةٌ وفَعالٌ زيّن الحسبـــــا
أَنا الذى وطئتْ هـــامَ السهـا هممى
ولم يكن نسبى فى الحى مؤتشبا[2]

---

(١) الديوان – القصيدة ٤٣ ، ٩١
(٢) النجديات – الأبيات ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٥ من القصيدة ٤٣ .

وقوله :

لوت طَرَفْ حبلى عن الذلّ همةٌ
لهـا بمناط الشِّعَـرَيَيْنِ ثـواءُ
وحيٌّ إذا الأنساب أظـلم ليلهـا
تبلـج عنهم صبحها فأضاءُوا
غمانىَ منهـمْ كـلُّ أبيضَ ماجدٍ
على صفْحَتَيْـه بهجـة وحياءُ
أغـرّ كماء المزن أُخلص نجـره
ولم يتورّك والـديـه إماءُ[1]

وشعره الذى فخر فيه بنسبه أكثر من أن يحصى[2] .

٢ ــ نشأ الأبيوردى العربى النسب الأموى الأصل فى بلاد فارس ، وانتسب إلى غير العرب من جهة أمه . إلا أن تلك النشأة والنسب الأعجمى لم ينسياه عصبيته العربية أو يحدا من اعتزازه بها . ولسنا نشك فى أن شعره يمثل الشخصية العربية فى عصره أصدق تمثيل بما اشتملت عليه من إباء وترفع عما يزرى بمروءة الرجل وكماله ، ويمثل أيضاً بيوتات العرب الأصلاء الضاربين بعروقهم فى المجد ، والمتخلفين بكل صفاتهم الحميدة وخصالهم الرشيدة . وقد تمثلت عصبيته العربية ــ إلى جانب افتخاره بعروبته وعروبة

---

(١) الديوان الأبيات ٣ ــ ٦ من القصيدة ٢٣٨ .

(٢) انظر مثلا القصيدة (٦) التى اصطفاها لشكوى الدهر وذم بنيه والفخر بقومه وبنفسه بإسهاب وتفصيل ، والقصيدة (٧٧) فى الفخر بقومه وجور الزمان بهم .

قومه – بالتفافه حول بعض الأمراء والرؤساء العرب الذين اصفاهم جملة صالحة من مدائح ديوانه[١] ولعل انصرافه إلى هؤلاء تعبير عن سخطه للعرب واستنكاره أن تنزع مقاليد الأمور من أيديهم وتوكل إلى غيرهم ، واستنهاض لهممهم لأخذ حقوق العرب ، واستعادة وجودهم .

وأشبه الأبيوردى المتنبي فى تعلقه بالعروبة ومحاماته عنها . فأبو الطيب شاعر عربى النسب والنشأة والروح ، يمثل العربية تعبيراً صادقاً فى بعد همته وشجاعته وترفعه عن الدنايا وإبائه وطموحه . وقد أشاد فى مدائح سيف الدولة بعربية الأمير وعدها من مفاخره فقال :

رفعتْ بك العَرَبُ العمادَ وصيّرتْ
قمَمَ الملوك مواقدَ النيران[٢]

وتجلى افتخاره بالعربية باعتزازه بكل ما هو عربى :

تُهاب سيوف الهند وهْى حدائدٌ
فكيف إذا كانت نزاريةً عربا[٣]

ونجد عند الأبيوردى اعتداده بعروبة ممدوحيه من العرب ، فهو إذا مدح الخليفة المقتدى أشاد بمجد العباسيين وذكر قرابته لهم :

---

(١) من الأمراء العرب الذين اتصل بهم ومدحهم صدقة بن منصور الأسدى ووالده ، وعدد من بنى عقيل وبنى جمح وبنى كنانة بن خزيمة وبنى شيبان . . ومن مدائحه فيهم القصائد ٢٥ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٤ ، ٤٩ .

(٢) ديوان المتنبى ٤ : ١٨٤ .

(٣) ديوانه ٥ : ٦١ .

وقد ولدتْنى عصبةٌ ضمَّ جـــدَّهمْ
وجـــدَّ بنى ساقى الحجيج عروق[١]

وإذا مدح صدقة ذكر عمامته وهى رمز عروبته :

لـــه عمّة لوثاءُ تفترّ عن نهى
علمنا بها أن العمائـــم تيجان[٢]

وإذا ذكر أصحابه افتخر بنشأتهم العربية وفصاحتهم وشجاعتهم :

معى كـــلُّ فضفاض الرداء سَمَيدعٍ
أُصاحب منه فى الوقائع أروعـــا
غـــذتْه ربا نجـــد فشبّ كأنه
شبا مشرفىٍّ يقطر السمّ مُنقعـــا[٣]

ولم يكتف شاعرنا بأن يشيد بمآثر العروبة ويمدح العرب ، بل كان يستحث هؤلاء على استعادة المكانة الجديرة بهم كما تقدم . يخاطب أحد ممدوحيه بقوله :

فـــإيهٍ أَبا الشَّدّاد إن ورائـــيا
أَحاديثَ تُروى بعـــدنا فى المعاشر[٤]

---

(١) الديوان – البيت ٢٦ من القصيدة ٨٤ .
(٢) الديوان – البيت ٥٢ من القصيدة ١٧ .
(٣) الديوان – البيتان ١٧ ، ١٨ من القصيدة ٢٩ . وانظر فيها الأبيات التالية لها ١٩ – ٢٦ .
(٤) الديوان – البيت ٣٢ من القصيدة ٥٢ .

وكان يسلك لذلك مسلك إثارة الحمية والأنفة العربية :

دهرٌ تذأب من أبنائـــه نَقَــدٌ
وأُوطئتْ عَـــرَبٌ أَعقابَ أَعلاج
وأَينـــع الهامُ لكنْ نام قاطفهـــا
فَمَنْ لهـــا بزيادٍ أو بحجّـــاج ؟
وأَنت يا بن أَبى الغمـــر الأَغرّ لها
فقـــلْ لذودٍ أَضاعوا رعيها : عاج
وأَلقحِ الرأى يُنتجْ حادثاً جـــللا
إنَّ الحوامـــل قد همّتْ بإخداج[1]

وكما اشترك الشاعران فى الإشادة بمجد العرب ومدح أعلامهم ، اشتركا فى مدح بعض الأعاجم . قال الأبيوردى فى مدح خال له وذكر قومه :

فتى تُورق السّمـــرُ اللّدان بكفّـــه
وإن دبّ فى أَطرافهن ذبولُهـــــا
وتَغشى الوغى بيضاً حـــداداً سيوفُه
فترجعَ حمراً باديات فلولهـــــا
ويوقظ وسنان التـــراب بضُمَّـــرٍ
توارى بشؤبوب النجيـــع حجولها

(١) الديوان – الأبيات ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ من القصيدة ٢٣ .

عليهـــا كماة الترك من فرع يافثٍ
كثيـــر بمستنٍّ المنايا نـــزولها
هم الأَسْدُ بأْساً فى اللقـــاءِ وأوجهاً
إذا غضبوا ، والسمهريّة غِيلها[1]

وقال المتنبى فى مدح أحد الكتاب :

فارسىٌّ لـــه من المجـــد تـــاج
كان من جوهـــرٍ على أَبـــرواز
نفسه فوق كـــل أَصـــل شريف
ولـــو انى له إلى الشمس عـــاز
وبآبائك الكـــرام التـــأَسى
والتسلى عمن مضى والتعـــازى
تركـــوا الأَرض بعدما ذلَّلـــوها
ومشت تحتهـــم بـــلا مهماز
وأَطاعتْـــهُمُ الجيـــوش وهِيبوا
فكلام الورى لهـــم كالنَّحـــاز[2]

---

(١) الديوان – الأبيات ٢٧ – ٣١ من القصيدة ٨٦ .
(٢) ديوان المتنبى ٢ : ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٢ .

ويتوهم من هذا الشعر أنه يخالف العصبية العربية ، وهو ما لا نراه ، لأن مدح جماعة ليس يعنى تحقير أخرى ، ولأن لكل من الشاعرين مأرباً فى المدح :

فأبيات الأبيوردى التى مدح بها الترك جاءت فى جملة قصيدة كتبها الشاعر إلى أحد أخواله من سروات العجم ، ولم يكن يقصد مدح الترك لتفضيلهم على العرب بل الإشادة بمآثر خاله وقومه وذكر فضائلهم ، وهى كما نرى فضائل تشترك فيها كل الأقوام والأمم[١] .

وأبيات المتنبى التى مدح بها على بن صالح الروزبارى الكاتب لم يكن يرمى من ورائها إلى مدح الفرس ، فكأن الشاعر ضاق عليه مجال القول فى هذا الممدوح فحلاه بشىء من مجد الفرس القديم ، ولو أراد تعظيم الفرس لاتسع له المجال فى قصائد عضد الدولة ، وهو لم يذكر فيها كلمة عن الفرس وملوكهم[٢] .

٣ — جعل كل من الشاعرين شعره مجالا من مجالات الفخر ، فقد كان كلاهما شديد الاعتزاز به محساً بجودته وعظيم قيمته ، واثقاً من بقائه وخلوده على الزمان . يقول المتنبى :

أنـــا الذى نظـــر الأعمى إلى أدبى
وأسمعتْ كلماتـــــى من بـــه صمم[٣]

---

(١) انظر سائر معانى القصيدة ٨٦ فى الديوان .
(٢) انظر ذكرى أبى الطيب ص ٣٣٨ — ٣٣٩ .
(٣) ديوانه ٣ : ٣٦٧ .

ويقول الأبيوردى :

كلماتـــــى قلائـــــد الأعناق
سوف تفنى الدهـــور وهى بواق

دلّ فيهـا الذهن الجلىّ بألفـا
ظٍ رقاقٍ على معـــانٍ دقـاق

فقريضى يراه من ينفد الأشـ
ـعار سهـــلَ المـرام صعب المراقى

وإليـــه يصبـــو الرواة وفيه
مـع شكل الحجاز ظرفُ العراق[1]

ويقول :

فُقْتُ الأعاريب فى شعرٍ نأمتْ به
كأنه لؤلؤ فى السلك منضـــود

إن كان يُعْجِزهم قولى ويجمعنـــا
أصـلٌ فقد تلد الخمـرَ العناقيد[2]

ولا يكفيه خلود شعره وتفوقه ، بل يرى فيه المثل المحتذى والأنموذج الأكمل :

---

(١) الديوان – الأبيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٦ من القصيدة ٢٠٧ ، وانظر بقية أبياتها .
(٢) الديوان – البيتان ٣٧ ، ٣٨ من القصيدة ٢٦ .

فكلّ من فاه بعدى بالقريض أتى
بمـــا تقيّـــل فى تحبيره أثرى [١]

ويشبهه فى موضع بنوار الرياض [٢] ، وفى موضع آخر بلآلئ الصدف [٣] .

وقارئ شعر الأبيوردى لا يتردد فى أن يلحقه بشعر المتنبى ، ولئن لم يكتب لشاعرنا من الشهرة ولشعره من الذيوع ما كتب لأستاذه أن عوامل وأسباباً شتى ليس هذا موضع بيانها حالت دون الجيد كله أن يذيع ويشتهر فليس كل مغمور مجهول من الشعر فاسداً . وقد آن الأوان لأن يوضع شعر الأبيوردى فى الموضع الذى يستحق :

٤ — أشبه كل من الشاعرين صاحبه فى أخلاقه وطموحه ونزعته الفكرية فقد يتبين قارئ المتنبى الكبرياء والإباء وعلو الهمة ، وهى صفات مستمدة من شجاعته وقوة نفسه ، ويتبين قارئ الأبيوردى عجبه وكبرياءه ، وذلك مستمد فيما نحسب من علو نسبه . وقد ترتب على هذه الصفات التزامات

---

(١) الديوان — البيت ٦ من القصيدة ٢٤٣ ، وانظر بقية أبيات القصيدة .

(٢) الديوان — البيت ١٨ من القصيدة ٨٥ .

(٣) الديوان — الأبيات ١ — ٦ من القصيدة ١٢٥ ، وفيها يبرز قيمة شعره ويشرح موضوعاته ، وانظر أيضاً فخره بشعره فى المواضع التالية :
فى البيتين ٤٧ ، ٤٨ من القصيدة ٢٤ من الديوان .
الأبيات ٢٥ — ٢٨ من القصيدة ٢٧ من الديوان .
الأبيات ٤٢ — ٤٥ من القصيدة ٤٠ من الديوان .
الأبيات ٣٨ — ٤٠ من القصيدة ٤١ من الديوان .
الأبيات ٢٦ — ٢٨ من القصيدة ٥٥ من الديوان .
البيت ٥١ من القصيدة ٧٢ من الديوان .
الأبيات ٩٧ — ١٠٠ من القصيدة ٨٥ من الديوان .
الأبيات ٣ — ٥ من القصيدة ١٤ من زيادات الديوان .
الأبيات ١٦ — ١٨ من القصيدة ١٧ من نجديات الديوان .

أخلاقية أدت بالشاعرين إلى الابتعاد عن اللهو والمجون ومعاقرة الخمر . فقد عرف كلاهما بعفته وتنزهه عما لا يليق بالرجل العظيم ، وصور كل منهما سمو أخلاقه فى ديوانه فقال المتنبي :

وتَرى الفتوّةَ والمـــروّةَ والأُبوّ
ةَ فِيَّ كـــلُّ مليحـةٍ ضَرّاتِهـــا
هنَّ الثلاثُ المـانعاتى لـــــذّتـى
فى خلوتى ، لا الخوفُ من تَبِعاتها[1]

وقال أيضاً :

وغيرُ فؤادى للغـــوانى رميّـــةٌ
وغيرُ بنانى للـــرّماح رِكـــابُ
تركنا لأَطراف القنا كلَّ شهوةٍ
فليس لنا إلا بهـــنَّ لِعـــاب[2]

وقال الأبيوردى :

لَعَمْرُ أَبى وهْو ابنُ من تعرفونه
لقد ذلّ عِرضٌ لم يَصُنْــهُ إباء
أيقتادنى نحـــو الدنيّـة مطمعٌ
علىّ إذاً إن لم أَذَرْه عَفـــــاء

---

(١) ديوانه ١ : ٢٢٧ .
(٢) ديوانه ١ : ١٩٢ – ١٩٣ .

لوتْ طرفَىْ حبلى عن الذلّ هِمّةٌ
لهـــا بمناط الشِّعريَيْن ثَـــــواء[1]

وأدت هذه الأخلاق إلى طموح الشاعرين إلى الغاية المثلى . ويلخص لنا أبو الطيب غايته وأربه بقوله :

سأَطلبها والنقع يضفو رداؤه
وجُردُ المذاكى بالدِّماءِ تعـــوم

فمـــا أَربى إلا سريرٌ ومنبـــرٌ
وذكـرٌ على مرّ الزمان يدوم

ولم يكن الأبيوردى يرضى بأقل من هذه المنزلة ، فقد كان ذا نفس أبية تحدثه بالخلافة ، فلذلك نسب إلى نقص فى العقل[2] . وقد كرر فى مقطعاته وفى قصائده التى خصصها لشكوى الزمان والناس ما كان يناجى نفسه به فصرح به أحياناً ولمح به أحياناً أخرى .

ومما صرح به قوله :

إن تجهلا ما يناجينى الحِفاظ به
فالرمحُ يعلم ما أَبغيـه والفَرَسُ

لله درّى فكم أَسمو إلى أَمـــــدٍ
والدهر فى ناظرَيْهِ دونـــه شَوس

---

(١) الديوان – الأبيات ١ – ٣ من القصيدة ٣٣٨ .
(٢) طبقات الشافعية ٤ : ٦٢ .

أَبغى عُلاً رامها جـــدّى فأَدركها
وكان فى غمـرة الهيجـــاء ينغمس
فأَىّ أَروع منى نبّهتْ هممـــى
وأَىّ شأْوٍ من العليـــاءِ أَلتمس[1]

وأدت هذه الأخلاق أيضاً إلى تعالى الشاعرين عن الناس وتحقيرهم والغلو فى ذلك غلواً كبيراً . قال أبو الطيب :

أَذمّ إلى هذا الزمان أُهَيْـــلَه
فأَعْلَمُهُمْ فَـدَمٌ وَأَحْزمُهمْ وغـدُ
وأَكرمُهمْ كلبٌ وأَبصـــرُهمْ عَمٍ
وأَسهدُهمْ فهـــدٌ وأَشجعُهُمْ قرد
ومِنْ نَكَدِ الدنيا على الحرّ أَن يرى
عدوًّا لـه ما من صداقته بـــدّ[2]

وإذا كان أهل الزمان فى رأى الأستاذ أوغادا وعميا . . فهم فى نظر تلميذه همج وعبيد :

لكنـــنى فى زمان أَهـــلُه همجٌ
وكلّهم حين تُطـــريه أَبولجأُ[3]

---

(١) الديوان – الأبيات ٣ ، ٥ ، ٩ من القصيدة ١٦٧ .
(٢) ديوانه ١ : ٣٧٤ – ٣٧٥ .
(٣) الديوان – البيت ٤ من القصيدة ٢٢٤ .

الناس من خَولى والدّهر من خدمى
وقمــــة المجد عندى موطىءُ القــدم

لو صيغت الأَرض لى دون الورى ذهباً
لم تَرْضها لمُرجّى نائـــــــلى هممى (١)

وأدت هذه الأخلاق أيضاً إلى ترديد الشكوى من كل شىء ، وكان سخط الشاعرين وتحدثهما بالثورة نتيجة إبائهما وطموحهما وإنكارهما المنزلة التى نشآ فيها . ويبدو أن الشكوى ظاهرة عامة تنسحب على كل العصور وتشمل كل الشعراء . وكل من الشاعرين لا يرضى بعيشته ويأنف فى الوقت نفسه أن تقوده الحاجة إلى الذل ، ويستنكر تقلب الدهر وتوالى مصائبه ، ويطمح إلى المعالى ويسعى لها ، ولكن لكل منهما موقفاً فى مواجهة تلك المصائب : فالأبيوردى يستهين حادثات الدهر ، ويسمو بعزته عليها ، ويعتصم بالصبر إزاءها :

تنكَّـــرَ لى دهرى ولم يَدْرِ أَننى
أَعـزٌّ وأَحداثُ الزَّمان تهـــون

فظـــل يرينى الخطبَ كيف اعتداؤُه
وبتّ أريــــه الصّبر كيف يكون (٢)

---

(١) الديوان – البيتان ١ ، ٥ من القصيدة ١٦٩ .
(٢) الديوان – بيتا القصيدة ١٥٤ .

والمتنبي يضحى فى سبيل مطامحه أبلغ التضحية :

ذرينى أَنَـلْ مالا يُنال من العلا
فصعب العلا فى الصعب والسهل فى السهل
تـريدين لقيـان المعالى رخيصـةً
ولا بـد دون الشهد من إبر النحل(١)

والخلاصة أن الأبيوردى كان شاعر العرب فى القرن الخامس كما كان المتنبي شاعرهم فى القرن الرابع ، فشعره يفصح عن عزتهم وإبائهم ، ويعرب عن أخلاقهم وطباعهم ، ويشيد بمآثرهم ، ويتناول كثيراً من رؤسائهم ومقدميهم بالمدح ، ويتمنى عليهم أن ينالوا حقوقهم . وقد تشابه الشاعران فى الاعتداد بالنفس والعزوف عن الدنايا والترفع عن الاسترسال فى الملذات ولكن شاعرنا كان أكثر قصداً واعتدالا فى فخره وثورته ونظرته إلى الناس ، على أن له أصلا فى الملك والنسب يجعل كلامه أقرب إلى القبول وأدنى إلى التصديق .

(د) الغـزل :

أحب شاعرنا العرب وعشق حياتهم الأولى ، وبانت علائم هذا العشق فى شعره الذى صور فيه تلك الحياة بكل ما يتصل بها من الأماكن والألفاظ المتداولة ومقتضيات المعيشة ، فصرنا نجد فى غزله مستلزمات الحياة البدوية من الخصاص والترحل والفراق والتحمل وشيم البرق وقطع المهام . . وكثر فى شعره أيضاً ذكر أماكن بأعيانها مثل وجرة والعقيق واللوى وحضن

(١) ديوانه ٣ : ٢٩٠ .

والعذيب والأجرع ونعمان وحزوى . . وتوسع فى دلالات هذه الأماكن فلم تقتصر على مسمياتها الأصلية ، واتخذ من تلك الأماكن مسرحاً لغرامياته وذكرياته العاطفية . وأحب من العرب وحياتهم نساءهم وجمالهن ، وتغنى بكريم محتدهن ، وتطرب بذكر أسمائهن وترديدها ، فطالعتنا أسماء ليلى وسعاد وسلمى وسعدى وأميمة وهند . . ورسم لغزله بهن لوحات حية ، وصور خفقات قلوبهن صوراً نابضة .

وقد ضمن ذلك كله نوعين من شعره الغزلى : الغزل التقليدى فى مطالع القصائد ، وغزل المقطعات التى سماها النجديات . وبين النوعين فروق فى المحتوى والشكل وأبرز تلك الفروق بين مطالعه الغزلية ومقطوعاته أن الأولى أشعار تقليدية متكلفة ممهدة لما وراءها من فنون الشعر ، والثانية نفثات وجدانية مقصودة لذاتها بعيدة عن التكلف ، وهى أقرب إلى روح الغزل وإلى صدق الأحاسيس وصفاء العاطفة .

ويذكر بعض الظواهر العامة لشعر المطالع عند الأبيوردى ، ثم ننتقل إلى الكلام على نجديات الشاعر :

١ ــ مارس الشاعر غزل المطالع كجزء من أجزاء القصيدة التقليدية التى التزم بها ونظم عليها أكثر قصائد ديوانه . وكان فى تلك المطالع مقلداً فى المعانى والصور ، فجاءت مطالعه شبيهة بمطالع سابقيه من حيث مبانيها ، ومعانيها ، ومن حيث خلوها من العاطفة الحقيقية التى تعبر عن تجربة ذاتية فى الحب . أما خلوها من العاطفة فبيانه فيما قاله المتنبى حين ثار على هذه المطالع الغزلية واستنكرها :

إذا كان مدحٌ فالنسيب المقدَّم
أكـلُّ فصيحٍ قال شعراً متيَّم؟[١]

ومن هنا صرنا نجد فى تلك الأشعار أكثر من اسم من أسماء المحبوبات . ومن العبث أن نبحث عن صواحب تلك الأسماء أو أسماتهن الحقيقية لأننا لن نصل فى بحثنا إلى شىء ، ولأن تلك الشخوص هى عرائس الشعر التى تغنى بها الشعراء فى مخيلاتهم .

٢ — من أبرز الخطوط العريضة التى رسمها الشعر التقليدى لغزل المطالع ، والتزم بها شاعرنا وجاءت واضحة فى مطالعه ذكر التحمل والفراق الذى تكررت مشاهده فى مطالعه كثيراً . ومن جملة هذه المشاهد موقف وصف فيه ساعة فراق الركب وتثوير الركائب ، وأتى على ما يعتمل فى النفس فى تلك اللحظات من حسرات وانفعالات أخفيت خوف الوشاة :

تفـــــرّق أهواءُ الجميع وثُوِّرتْ
ركائبُ ، أدنى سيرهنَّ نِقـالُ

وفى الركب نشوى المقلتين كأنها
وديعـة أُدْحِيٍّ ، وهـنَّ رئـــال

وفى الدمع من خوف الوشاة إذا رنت
إلينا أَناةٌ والمطىّ عِجـــــــال

---

(١) ديوانه ٣ : ٣٥٠ .

فيا حَسَراتِ النفس حين تقطَّعتْ ،

لبينٍ ـ كما شاءَ الغيورُ ـ حبال [١]

٣ ـ يستتبع ذلك الوقوف على الأطلال ومناجاة ديار الحبيب . وتدور معانى اللوحات التى رسمها الشاعر لذلك حول وصف بقايا الديار من نؤى وأثاف . . والدعاء لهذه الديار بالسقيا ، وهو رمز للحياة ، واستعداء الأمطار على الرياح التى تعمل على إبلائها . وفى إحدى اللوحات يستسقى الشاعر الغمام للديار المحبوبة ، ويشبه نؤيها بسوار الحبيب الملقى هناك ، فكأنه يراه لجدة عهده معه ، ويتمنى لها الحياة بأن تذروها رياح ضعيفة ويسقيها غيث منهمر:

أَلا بأَبى من حِيـــل دون مزارِهِ

وقــد بتّ أَستسقى الغمام لدارِهِ

عهـدتُ بها خِشْفاً أَغنَّ كأَنــنى

أَرى بِمَخَطِّ النُّؤى مُلْقى سواره

فــلا برحتْ تسرى الرياحُ مريضةً

بها ، ويحيّيها الحيا بانهماره [٢]

وتعكس بعض اللوحات الأخرى التى تمثل بقايا الديار ووقوف المحب أمامها حيران متأملا ، الحالة النفسية لهذا المحب ، متمثلة فى مساءلة الديار والتحسر على ما فعلت بها الأيام والبكاء لها بكاء مراً :

---

(١) الديوان ـ الأبيات ٢ ، ٣ ، ٥ ، ٦ من القصيدة ٦١ .

(٢) الديوان ـ الأبيات ١ - ٣ من القصيدة ٨٣ .

وأَشلاء دارٍ بالمحصّب من مِنى
وقفتُ بها والأَرحبية تَهـــدِرُ

أُسائلها والعين شَكْـرى من البكا
وهنَّ نحيلاتُ المعالم دُثَّـــر

وأَستخبر الأَطلال عن ساكنى الحمى
فلا الدمع يشفينى ، ولا الربع يُخْبِر

كأَنَّ ديارَ العامريّـة باللّـوى
صحائفُ تَطويها الليالى وتنتشر

فهل عَبرَةٌ تَقضى المعاهـدَ حقَّها
كما يَستهلّ اللـــؤلؤ المتحـدّر[1]

٤ – ومما يرد فى المطالع ويتكرر كثيراً طروق طيف المحبوب وزيارته فى المنام وسريانه فى مثل قوله :

سرى طيفُها والليل رقّ ظلامُهُ
وقد حُطَّ عن وجه الصباح لثامُهُ

فما راعنى إلا الخيالُ وَعَتْبُهُ
وفجـرٌ نضا بُرْدَ الظلام ابتسامُه

(١) الديوان – الأبيات ٢ – ٦ من القصيدة ٧٦ .

فقلتُ لصحبي إذ وشى الدمع بالهوى
وأَظهَرَ ما تخفى الضلوعُ انسجامُه

دَعُوا ناظرى يطفو ويرسب فى دمٍ
فلولاه ما ألوى بقلبى غـــرامه

ولا تعذلونى فالهوى يغلب الفتى
ولا ينثنى عنه لِلَوْمٍ يُلامـه[1]

ولكن سرعان ما يتلاشى ذلك الخيال لتبسم الفجر وانبلاج ضوء الصباح وارتفاع لثامه ، فيتبعه المحب دموعه الحرى لغلبة الهوى عليه .

٥ — روى لنا الشاعر غير مرة وقائع لقاءاته محبوباته ، وسرد تفاصيل ما كان يدور فى تلك اللقاءات فأشار إلى وقائعها الحسية ولم يفته تصوير الخلجات النفسية للحبيبين المتلاقيين . وفى القطعة التالية بدأ برسم موعد اللقاء فتخيره موعداً مناسباً يبعد عن الشبهات ويبعدها عنه :

سموت لهـا والليل حارت نجومه
على أُفق عارٍ بظـلّ الدجى كاس

ثم ذكر رد فعلها أمام هذه المفاجأة ، وما دار بخلدها — بعد أن سكن روعها — من مخاوف ، وموقفه فى تبديد شكوكها ، وعفته فى لقائها ، وحذره فى دبر الأخطار المحدقة :

---

(١) الديوان — الأبيات ١ ، ٥ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ من القصيدة ٦٤ .

فهبّتْ كما ارتاع الغزال وأوجست
من ابن أَبيها خيفةً أَىّ إيجاس

تشير إلى مُهرى حِذارَ صهيله
وتستكتم الأَرض الخطا خشية الناس

فقلت لها : لا تَفْرقى وتشبّثى
بنهّـاسِ أَقرانٍ ومنّاع أَخياس

تردّ يَدَيْه عن وشاحِكِ عفّـةٌ
وَعِرْضٌ صقيلٌ لا يُزَنُّ بـأَدنـــاس

وطَوّقْتُهـــا يُمنى يـــــدىّ وصارمى
بيسراى ، فارتاحت قليلا لإيناسى

وسرعان ما ينقض ما ادعاه من عفة حين يتابع قصة لقائه فيقول :

وذقت ـ عفا عنّا الإلهُ وعنكمُ ـ
جنى ريقةٍ تُلهى أَخاكم من الكاس

ويختم مغامرته بذكر الوداع وما كان فيه من عبرات وزفرات :

فلما استطار الفجر مال بعِطْفها
ودَاعى كما هزّ الصَّبا قُضُبَ الآس

وكم عَبرةٍ بلَّتْ وشاحاً وَمِحْمَلاً
بها زفـرة أَدْمَتْ مسالك أَنفاسى [١]

وأمثال هذه المغامرة مما بثه فى مطالع قصائده[٢] يذكرنا بعمر بن أبى ربيعة فارس الحب والغزل ورائد هذه المغامرات العابثة. إلا أن مغامرات صاحبنا ليست عابثة كلها ، فغالباً ما اتسمت لقاءاته بالعفة :

وما ذقت فاها غيـــر أَنِّى مكرر
أَحاديثَ يرويهـــا فروع بشام [٣]

وهو يراعى فى ذلك تقوى الله :

أَما وجلالِ الله لـــــولا اتقاؤه
لبات يوارينا الرداء الْمُفَوّف [٤]

٦ ــ لأوصاف المرأة الحسية نصيب ضئيل فى المطالع الغزلية . وقد شببت هذه الأوصاف بالتشبيهات والاستعارات التى جعلتها مستملحة مستساغة :

أَغنُّ يعـــروه مـــراحُ الصِّبا
وينثنى فالقـــدُّ نشوانُ صـــاحْ
إذا الكرى رنّق فى عينـــــه
رنا بأَجفانٍ مـــــراضٍ صحاح

---

(١) الديوان ــ الأبيات ٩ ــ ١٧ من القصيدة ٧٠ .
(٢) انظر مثلا الأبيات ٩ ــ ٢٠ من القصيدة ٨٨ .
(٣) الديوان ــ البيت ٦ من القصيدة ٤١ .
(٤) الديوان ــ البيت ١٠ من القصيدة ٤٦ .

وإن وشى الْحَلْىُ بـه راعَهُ
بعد وفاء الخرس غدرُ الفِصاح

وكيفَ يَسْتكتم خلخالَه
سرًّا وقد نمّ عليه الوشاح

إذا رنا لفّ الردى حاسراً
بدارع ، فاللحظُ شاكى السلاح

وما أَضاءَ البرق من ثغره
إلا تجلًّى حببٌ فوق راح

فالطَّرف إن مرّضه نرجس
والخدُّ وردٌ ، والثغور الأَقاح[1]

أما النجديات ، وهى الضرب الثانى من ضروب الغزل عند الشاعر ، فقد كفانا الشاعر نفسه مؤونة نظمها وتسميتها ، فذكر فى مقدمتها سبب نظمها فقال « ثم إن صاحبي . . كانا يرتاحان للنسيب الرقيق . . فسألانى أن أنظم فى ذلك . . فلم يرتدعا عن سؤالهما ، ولم أجد بدأً من تحقيق آمالهما» .

وإذاً شابهت النجديات المطالع التى عرضنا لها من حيث إنها كلها غزل « نظرى » ينظمه الشاعر بناء على طلب ، لا بإلحاح عاطفة ذاتية .

---

(١) الديوان — الأبيات ٢ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٤ من القصيدة ٥١ .

أما تسميتها التى اختارها الشاعر وحددها فى مقدمته بقوله « وهذه ألف بيت فى النسيب وسمناها بالنجديات » ، فقد كفانا أمر البحث عن أسبابها وعلتها حين ذكر فى أكثر من واحد من أشعاره أن حبه نساء نجد دفعه إلى حب نجد وأهلها . يقول :

أحب لحبهـــا تلعات نجـــد
وما شغفى بهـــا لولا هواهـــا[1] ؟

ويقول أيضاً :

فلولا ابنـــةُ السعدىّ لم يك منزلى
بحيث العرار الغض يلتفّ بالرند
ولا هاج شوقى نفحـــةٌ غضويّةٌ
غداة تلقَّتْها العـــرانين من نجد
ومن أجلها أُبدى الخضوع لقومها
وأمحضهُم ودّى وأوطئهم خدّى[2]

ولم تصف النجديات كلها للغزل ، ففيها من الفخر والشكوى ما يتصل به اتصالا ما . فإذا افتخر الشاعر فليتقرب بما يفتخر به من قلب محبوبته ، وإذا شكا فليثبت لها أن الزمان لم ينصفه أو يضعه فى مركزه الذى يستحق :

---

(١) النجديات – البيت ١٨ من القصيدة ٢٢ .
(٢) النجديات – الأبيات ١٨ – ٢٠ من القصيدة ٥٩ .

أنا الذى وَطِئتْ هامَ السّها هممى
ولم يكن نسبي فى الحى مُؤتَشياً

لكننى فى زمانٍ لا تزال لـــــه
نكراءُ مرهوبةٌ تغـــرى بىَ النَّوبا

أعض كفِّىَ من غيظـــى فشيمتُه
أَن يُتبع الرأسَ من أبنائه الذَّنَبا[1]

وإذا ذكر الشيب خشى نفور الغوانى وزهادتهن فى مودته :

ولمـــا رأَتْ وَخْطَ القتير بلِمَّتى
تولَّتْ كما راع الغزالةَ ذيب

وكنَّا كغصنَىْ بانةٍ طاب عِرقها
فطالا ولكنْ ذابـــلٌ ورطيب

فما بالُها ترمى إلىّ بنظـــرةٍ
تُغازلهـــا البغضاءُ وهـــى تريب

كأَنِّى ابتدعتُ الشيب أَوليس فى الورى
ذوائبُ فى أَطـــرافهنّ مشيب

---

(١) النجديات — الأبيات ١٥ — ١٧ من القصيدة ٤٣ ، وانظر باقى أبيات القصيدة .

ولا غرو أَن أُكسى القِلى من كواعبٍ
رداء شبابى عنـــــدهن سليب[1]

وهكذا سخرت هذه الأغراض الجانبية فى النجديات لخدمة غرضها الأساسى فى الغزل .

تقدم أن غزل الشاعر بنوعيه كثرت فيه أسماء المحبوبات التى اكتسبت شهرة فى شعرنا العربى ، وكثر فيه أيضاً ذكر أماكن ومواضع من الجزيرة العربية ما أقام فيها الشاعر ولا عرفها ، وإنما رددها على سبيل التقليد ، وأكثر من ذكر مفردات البادية ومقتضيات معيشتها لكى يطبع غزله بالطابع العربى الأصيل الذى أحبه واصطفاه ، فهو يستلهم مثله الأعلى من الصحراء ، ويفاخر بأن ينقل فى شعره صورتها حتى نكاد نشم فيه عبق العرار والزند :

متى طـــــرقتْنى نفحـــةٌ غَضَويّةٌ
يفوح بريّاها العــــــرار أَو الرَّنْدُ
أَزالت فؤادَ الصّبّ عن مستقرّه
بوجدٍ كما يفترّ عن ناره الزند
إذا ما الغمام الْجَوْدُ حــلّ نطاقه
فخُصّ به نجــد ومن ضمّه نجد[2]

---

(١) النجديات – الأبيات ٥ – ٩ من القصيدة ٢٨ .
(٢) النديات – الأبيات ٣ – ٥ من القصيدة ٤٨ .

وليست النجديات نسيج وحدها فى هذا العصر ، فقد عمل الشريف الرضى [١] مجموعة غزلية واسعة الشهرة بعيدة الصيت عرفت بالحجازيات ، وعمل الطغرائى مجموعة أخرى لها الاسم نفسه أيضاً . وما يعطى النجديات أهمية خاصة هو أن صاحبها جمعها فى ديوان مستقل فحفظت تامة كما جمعها ، فى حين بثت حجازيات الشريف والطغرائى فى أنحاء ديوانيهما [٢] .

ويلاحظ الباحث فى نجديات الأبيوردى الصلة الوثيقة بينهما وبين حجازيات الشريف الرضى . وأساس هذه الصلة تشابه أوضاع نظم كلتا المجموعتين ، فقد نظمت كلتاهما خارج نجد ، فعمل الأبيوردى مجموعته فى أواخر حياته فى بعض بلاد فارس حباً بنساء نجد وأهلها ، ونظم الشريف أشعاره فى العراق لقوله فى إحدى الحجازيات :

سهم أَصاب وراميه بذى سَلَمٍ
من بالعـــراق ، لقد أَبعدت مرماك [٣]

وتم لقاء الشاعرين قبل ذلك فى المبادئ والغايات ، فكلاهما يرى نفسه من خلال نسبه ويعدها للثورة للوصول إلى معالى الأمور .

وبين الحجازيات والنجديات قصائد نظمت على شاكلة واحدة وروى واحد كقصيدة الشريف التى مطلعها :

---

(١) أبو الحسن محمد بن أبى أحمد الحسن . ولد سنة ٣٥٩ وتوفى سنة ٤٠٦ . أثنى عليه صاحب اليتيمة ووصفه بأنه أشعر الطالبيين . الوفيات ٤ : ٤١٤ — ٤٢٠ . وانظر مقدمة شرح ديوانه ص ٥ — ١٩ .

(٢) فى معهد المخطوطات بالجامعة العربية نسخة من قصائد الشريف الغزلية بعنوان : حجازيات الشريف . وليس فيها شىء زائد على ما فى الديوان .

(٣) ديوانه ٢ : ١٠٧ .

يا ظبية البان ترعى فى خمائله
ليهنِكِ اليوم أن القلب مرعاك[١]

وقصيدة الأبيوردى التى مطلعها :

كيف السلو وقلبى ليس ينساك
ولا يَلَذّ لسانى غيرَ ذكـــراك[٢]

وقد غلب على الحجازيات العبارة الإنشائية والبحور الطويلة والتكلف الواضح فى أحيان كثيرة كقوله فى القصيدة المذكورة :

سقى مِنًى وليالى الخيف ما شربت
من الغمام ، وحيّاها وحيّـــاك
إذ يلتقى كـــل ذى دَيْنٍ ومماطله
منا ويجتمـــع المشكوّ والشاكى
حكتْ لحاظُك ما فى الريم من ملح
يوم اللقاء فكان الفضل للحاكى
هامت بك العين لم تتبع سواك هوى
من علَّمَ البين أنَّ القلب يهواك

---

(١) ديوانه ٢ : ١٠٧ — ١٠٨
(٢) النجديات — القصيدة ٥٤ .

فهذه معان متداولة فقدت هزة المشاعر العاطفية وروعة الصورة الشعرية وخفة ألفاظ الغزل والنسيب . أما النجديات فامتازت بنغماتها التى عكست رقة النسيب وحلاوة الغزل :

أَشكو الهوى لترقِّى يا أُميمة لى
فطالما رفق المشكوّ بالشاكـــى
يشقى ببعضىَ بَعْضِى فى هـواكِ فمـا
للعين باكيةً والقلبُ يهـــوِاك ؟
إن يحك ثَغْرَكِ دمعى حين أَسفحه
فإنَّنى جـــدتُ للمحكىّ بالحاكى [1]

فلننظر كيف تلقف الأبيوردى بعض كلمات القصيدة التى يحاكيها فأرقص فيها نفوس العشاق وأرق بها قلوب الأحبة . ويمكن إجراء مقارنات أخرى بين بعض قصائد المجموعتين الشعريتين . ولكنها لا تخرج عما مثلنا به ، وتنتظمها كلها هذه القواعد وتسلكها هذه السبيل [2] .

(هـ) خاتمة :

عاش شاعرنا لصيق الاتصال بأحداث مجتمعه ، فأدار القول فى مختلف

---

(١) النجديات — الأبيات ٢ ، ٥ ، ٦ من القصيدة ٥٤ .
(٢) انظر مثلا النجدية (١٩) ومطلعها :
ولوعة بت أخفيها وأظهرها بمنزل الحى بين الضال والسلم
وقصيدة الشريف المشهورة (ديوانه ٢ : ٢٧٣ — ٢٧٥) :
يا ليلة السفح ألا عدت ثانية سقى زمانك هطال من الديم

فنون الشعر العربى ، فبرز فى المدح والفخر والغزل، ونظم فى الرثاء والهجاء والوصف . . ولكن ما تركه فى ديوانه من هذه الفنون قدر ضئيل لا يعطى صورة واضحة للأبيوردى الوصاف أو الهجاء . وكأنه أحب لنفسه ألا يعرف إلا بما برز به :

فإنْ أمدحْ إمامـــاً أَو هَماماً
فــــلا جاهاً أَروم ولا نوالا
وأُنظــم حين أَفخــر رائعاتٍ
تكـــون لكلّ ذى حَسَبٍ مثالا
وأَعبث بالنسيب ولست أَغشى الـ
ـحــرام فيقطــر السحرَ الحلالا[1]

وما نظمه فى الرثاء ، لا يعدو كونه تأملات فى الحياة يكتنفها التشاؤم واليأس ، وذكر فضائل الفقيد والدعوة له . ومن هذه التأملات ما يتخذ شكل حكم تجىء حسنة الوقع لورودها عفواً دون قصد كقوله :

نهــوى البقاءَ وليس فيه طائل
والمرءُ نهب حـــــوادثِ الأَيام[2]

وهو يشبه قول المتنبي :

أَرى كلَّنـــا يبغى الحياة لنفسه
حريصاً عليها مستهاماً بها صبّا[3]

---

(١) الديوان - الأبيات ٥٩ - ٦١ من القصيدة ٦ .
(٢) الديوان - البيت ٢ من القصيدة ٩٦ .
(٣) ديوانه ١ : ٦٥ .

وعمد أحياناً إلى المبالغة فى تصوير المصيبة النازلة حتى جعل القارئ يحس من خلال هذه المبالغة باختلال نظام الكون لموت المرثى . يقول مثلا فى رثاء أحمد بن ملكشاه وهو فتى مات فى الحادية عشرة من عمره :

والشمسُ شاحبـــةٌ يمـــورُ شعاعها
مَـــوْرَ الغدير طغت به النكباءُ
والنيّرات طوالعٌ رأدَ الضحـــى
نُفضتْ على صفحاتهـــا الظلماء
ينـــدبن أحمد فالبلاد خواشع
والأرض تُعْـــوِلُ والصباح مساء[1] !

وفى ديوان الشاعر بضع قصائد نظمها «بناء على اقتراح الوزن والقافية»[2] فكان أحد أصدقائه يعهد إليه بغرض فى نفسه ، ويشترط عليه بحراً وقافية معينة ، فيخرج بقصيدة متكلفة بعيدة عن الطبع ، مما جعل الشعر أداة مصطنعة تصاغ عند الطلب والمقتضى . ويظهر التكلف واضحاً فى اختيار قواف غريبة لم تجر العادة بالنظم عليها ، كالنظم على قافية الخاء والسين والضاد والغين .

ونظم الشاعر أحياناً فى المطارحات الإخوانية التى كانت تتمثل بما يدور بين الشعراء من مسامرات ومراسلات فى أغراض شتى . وحفظ لنا ديوان الطغرائى[3] قصيدتين متبادلتين بين الشاعرين ، تضمنتا ما يجرى بين

(١) الديوان – الأبيات ٥ – ٧ من القصيدة ١٩ .
(٢) القصائد ٢٧ ، ٥١ ، ٥٦ ، ٧١ ، ٩٤ .
(٣) ص ٨٦ – ٨٧ . وانظر قصيدة الأبيوردى فى زيادات الديوان رقم ٣٠ .

الأصدقاء عادة من معاتبات . ومن تلك المطارحات ما قاله البارع الخراطانى.

وليـــــلةٍ بتّ بهـــــا نافضاً
أضالعـــــى من شدة البـــرد
كأنمـــــا تنفض آفاقهـــــا
على الربـــــا شعر الأبيوردى

وما أجابه به الأبيوردى :

هاتيك نيسابـــــور أشرف خطة
بنيتْ بمعتلج الفضـــــاء الواسع
لكنْ بها بَردان : بـــــردُ شتائهـــا
إمّا شتوتَ ، وبردُ شعر البارع[1]

ووجدنا بعض التشنيعات على الشاعر وشعره كقول أبى يعلى بن الهبارية :

كـــأنَّ فى رأسى ، ولا رأس لى
من نتنه ، شعـــــر الأبيوردى[2] !

وأما ما ورد من قول صاحب الوافى من أن الشاعر « كان ملقى من الناس فى شعره » ، ومن استدلاله على ذلك « بقول القائل :

---

(١) الوافى بالوفيات ٢ : ٩٢ .
(٢) الخريدة – قسم شعراء العراق ٢ : ٨٧ .

قعاقـــعٌ ما تحتهـــا طائـــل
كأنهـــا شعـــــر الأبيوردى[١] »

فليس بشىء . ومنزلة شعره الحقيقية هى المنزلة التى اصطفاها الشاعر له بقوله :

وكيف يشكو الدهـــرَ من شِعْرُهُ
على جبين الدهـــر مكتـــوب[٢]

٢

الصورة الشعرية

الصورة الشعرية هى النواة الأولى لبناء المعنى الشعرى . ورب معنى لا تستوعبه صورة واحدة ، ويحتاج إبرازه وجلاؤه واستيفاؤه إلى عدد من الصور . كما أن غرض القصيدة لا يتحقق أحياناً بمعنى واحد ، ولكنه يتمثل بمجموعة من المعانى . وهكذا يستوفى الغرض الشعرى بأكثر من معنى ، ويستوفى المعنى بأكثر من صورة .

والصورة الشعرية أثر من آثار الشاعر المجيدة الذى ينتقل بالقارئ من مجرد قراءة أشعار مسطورة إلى مشاهدة منظر من مناظر الوجود إذا نظم فى المرئيات ، وإلى مناجاة نفسه إذا نظم فى الوجدانيات . ومنظومات الأبيوردى لوحات طبيعية على قدر كبير من الجمال والروعة . ولنعرض فى التمثيل لها مقطوعة وصف فيها الفهد فقال :

---

(١) الوافى بالوفيات ٢ : ٩٢ .
(٢) الديوان - البيت ٥١ من القصيدة ٧٢ .

ومقيلِ عفرٍ زُرته ويـــــدُ الردى
بسطتْ أناملَهـــا لكى تجتاحَها

ولدىّ مرقومُ القميص قد احتمتْ
منه بأكثبة الحمى فأباحهـــا

وفللتُ عن بقر الصريمة غَرْبَـهُ
والرعبُ أقمأ باللّـــوى أشباحها

فكأنها خلعتْ عليـــه إذ نجت
منه نواظـــرَ لا تكفّ طماحها

وتحولتْ نقطاً بضاحى جلـــدِهِ
حتى وقتْ بعيونها أرواحهـــا[1]

ففى هذا الوصف رسم لنا لوحة حية ملونة أشرك فيها ثلاثة عناصر : الفهد الذى يهم بالمها ليفترسها ، والمها التى تهرب منه وترمقه بنظراتها النجل ، وهو نفسه الذى حال دون افتراسه إياها .

وأضفى على هذه اللوحة عنصرى التلوين والحركة ، فمن الألوان فيها الظباء العفر ، وفيها خيالات الأشباح التى استحالت بقر الصريم إليها ، وفيها نواظر المها السوداء ، وفيها النقط التى تنقط بها جلد الفهد ، وهى ما أطلق عليه الشاعر القميص المرقوم . أما الحركة فبسط الردى يده لاجتياح قطيع

---

(١) الديوان - القصيدة ٢١٣ .

الظباء ، واحتماؤها بالكثبان واحتجابها بها ، ومطاردة الفهد الذى لم يعيه قطع الأكثبة وتجاوزها ، والحيلولة بين الفهد وبين أن ينقض عليها لشبهها بمن يحب الشاعر . والحركة الفنية الخالصة التى لا تحيط بها الصفة ويصعب التعبير عنها تتمثل فى إلقاء الرعب أشباح تلك الظباء . وأخيراً الحركة البديعة فى انتقال لون عيون الظباء إلى جلد الفهد .

وروعة هذه الصورة أنها شغلت القارئ بتفاصيلها ، واستحوذت على حسه وذوقه ، فنحس أن قلبه يشب فى تأملها إشفاقاً على الظباء اللواتى استحالت أشباحاً لشدة خوفها ، حتى يخيل للقارئ أنه يستشعر الرعب الذى أحالها إلى أشباح ، وأنه يلمح تلك الأشباح ويشفق عليها أن يغتالها الفهد .

وكما أنه لا جمال للشعر إلا إذا أضيف إلى الحقيقة فيه شىء من الخيال فإننا نظن أن ما أضفى على هذه الصورة مسحة من الجمال الفنى ، هذا الخيال الذى خلعه الشاعر على الصورة فى إعارة الظباء عيونها للفهد ، وتلوين جلده بلونها ، وهى الفدية التى دفعتها تلك الظباء لتشترى بها حريتها .

وتتكشف لنا فى هذه اللوحة الفنية ناحية هامة ، وهى أن أهمية الصورة الشعرية تتجلى فى التأثير فى القارئ والسامع وتمكين المعنى فى نفسيهما لما فيها من تحليل وتعليل للمعنى الذى ترمى إليه . وأى جمال أو بيان أبلغ فى بيان علة تلون جلد الفهد بالنقط السود من أن هذه النقط هى الفدية التى اشترت بها الظباء حريتها فدفعتها من مقل عيونها ؟ لا نظن أن أحداً تعرض له هذه الأبيات وينسى بسرعة هذه الصورة لما فيها من تمكين للمعنى جرته غرابة التعليل وجودته .

وقصائده ومقطعاته الذاتية الوجدانية التى أودعها خفقات قلبه تأخذ بأحاسيس القارئ وتملك عليه مشاعره وتفكيره جميعاً ، وتنقله إلى أجواء

عليا من الرفعة والسمو الخلقى والنفسى . فى بعض أشعاره الحوار التالى بين سرب من العذارى وواحدة منهن ، ومداره الشاعر نفسه :

فقلنَ لها من أَين أَوضحَ ذا الفتى
ومنشؤه غَوْرا تهامةَ أَو نجـــــدُ ؟

فى لفظه عُلْوِيّـــــةٌ من فصاحةٍ
وقد كاد من أَشعاره يقْطر المجد

فقالتْ : غلامٌ من قريشٍ تقاذفتْ
به نيةٌ يعيي بهـــا العاجز الوغـــد

لَعَمْـــرُ أَبيهـــا إنهـــا لخبيـــرةٌ
بأَروعَ يَمـــرى دَرَّ نائِلِهِ الحمـــد

من القوم تستحلى المنايـــا نفوسَهم
ويختال تيهاً فى ظلالِهِمُ الوفـــد

ومن لان للخطب الملمّ عريكـــةً
فإِنى على ما نابنى حجـــرٌ صلد

بلغتُ أَشُدّى والزمانُ ممـــــارسٌ
جماحى عليـــه وهو ما راضنى بَعد[1] !

---

(١) الديوان – الأبيات ٥ – ١١ من القصيدة ١٤٢ .

وإذا استطاع الشعر أن يحقق النقلة إلى هذه الأجواء النفسية ، وأن يشرك القارئ فى أن يحس بإحساس الشاعر ويشاطره شعوره فقد حقق كثيراً مما وضع له .

وقد يبلغ شاعرنا الذروة فى أداء المعنى المراد حين يتمكن من ضرب المثل للوجدانيات بالمحسوسات بديباجة مشرقة وتعبير أصيل يقول :

وما مُغزلٌ فاءَت إلى خوط بانـــــهِ
نـأَت بمجانيها عن الخشف عاطيـــا

تمــد إليها الجيــدَ كيما تنالَــه
ويا نعم مُلقى العيش لو كان دانيا

فناشت بغصنٍ كالذؤابــــة أَصبحت
تقلّب بالرّوقَيْن فيهـــــا مَداريا

برابيـــة والروض يصحو وينتشى
يظل عليها عاطل الترب حاليـــا

فمالت إلى ظـــلّ الكِناس وصادفت
طَلاً تتهاداه الذئاب عــــــواديا

فولّتْ حِذاراً تستغيثُ من الــردى
بـأَظلافهـــا ، والليلُ يلقى المــراسيا

فلمـــا استنار الفجر ينفض ظـله
كما نَثرتْ أيـــدى العذارى لآليا

وفاه نسيم الـــريح وهْى عليـــلةٌ
بِنَشْرِ الخزامى ترضع الغيث غاديا

قضتْ نَفَساً يطغـــى إذا ردّ غَرْبَه
إلى صدره الحرّانُ رام التراقيا

بأَبـــرحَ منى لوعـــةً يوم ودّعتْ
أُميمةُ حُـــزوى واحتللنا المطايا[1]

وقد قصدنا إلى إيراد هذه الاستدارة التشبيهية على طولها ، لنرى كيف عبر عن حالة معينة من حالاته النفسية وقع تحت تأثيرها طاعة الفراق . فقد صور التياع هذه الأم المغزل وخوفها على ولدها من جهة وعلى نفسها من جهة أخرى ، فوضعها فى أقسى حالات الخطر التى يستنفد فيها الصبر وتستوهن العزيمة ، ونظر فوجد ذلك كله قليلا فذكر أن لوعته أشد من لوعة الغزالة . وقد أكثر حركاتها الصادرة عنها للتعبير عن شدة حيرتها وترددها وحرقة قلبها .. فجاءت الأبيات تضج بالحركة والحيوية . وإنما رمينا من ذكر هذه الصورة الشعرية إلى بيان جملتها وجودتها فى تقريب المعنى المطلوب . ولو أننا فى معرض ذكر بلاغة التشبيهات وإشراق الأساليب لوقفنا عند كل بيت منها ، ففيها أكثر من تشبيه رائق واستعارة لطيفة .

---

(١) الديوان – الأبيات ٢٠ - ٢٩ من القصيدة ٢ .

ومن شأن كمال الصورة الشعرية الإحاطة بجميع أنحاء الموصوف ، وكلما أحاطت الصورة بدقائق الشيء المصور وتفاصيله كانت أقرب إلى الكمال وأبلغ فى التأثير . ومن لوحة رسمها الشاعر لأحد ممدوحيه وذكر فيها إيقاعه بخصومه نسوق أبياتاً صور فيها الخوف الذى نزل بساحة هؤلاء الخصوم .

فهـــمْ من بينِ معتجـــرٍ بسيف
ومقتسَرٍ يـــؤرّقه الصّفـــاد

وآخـــر تَرجفُ الأَحشاء منـــه
نجـــا بذمائـــه ، وللك المعاد

وكان لـــه ســـوادُ الليـــل جاراً
وبئس الجـــارُ للبطـــل السواد

يحـــرّك طِـــرفه وبه لُغـــوبٌ
ويمسح طَـــرفه وبه سهـــاد

إذا ارتكض الكـــرى فى مقلتيه
أَقضّ على جـــوانحه المهـــاد

أَبى أَن يلتـــقى الجفنان منـــه
كأَنَّ الهـــدب بينهما قتـــاد[1]

---

(١) الديوان – الأبيات ١٧ – ٢٢ من القصيدة ٦٢ .

قلنا إن إضافة شيء من الخيال إلى الشعر يجمله ويرفع مرتبته . ومن ذلك ما وصف به الشاعر فرساً أسود فقال :

ومُرْتـــدٍ بالدجـــى روّحتُ صهوته
بعد اختلاس ذماء الريـــح بالعَنَق
فما مسحتُ بعُـــرف الصبح حافره
ولا فليتُ عليـــه لِمّـــةَ الغَسَق (١)

فقد جعل الدجى له رداء ، وجعل فرسه والريح فرسى سابق ، وكنى عن سواد حوافره بأن جعل للصبح عرفاً وللغسق لمة ، وهو من روعة الأداء .

٣

دراسات مقارنة

مع كعب بن زهير فى « بانت سعاد »

[كلمة فى المعارضات – أقسام القصيدتين
دراسة مقارنة – نظرة عامة] .

١ – ازدهرت المعارضات الشعرية فى تاريخ الأدب العربى زمن الثلاثة الأمويين الكبار ، وعرف ما دار بينهم من معارك شعرية بالنقائض ، فكان أحدهم ينظم قصيدة فيردها عليه الآخر بقصيدة على وزنها وقافيتها فيفندها ويرد ما فيها . ثم خرج مفهوم المعارضات الشعرية عما كان بين هؤلاء من خصومات إلى أفق أرحب وميدان أفسح ، فتحلل أولا من قيود الخصومات فلم تبق موضوع هذه المعارضات ، ولم يعد يلزم أن تنقض القصيدة الجديدة

---

(١) الديوان – البيتان ١ – ٢ من القصيدة ١٩٩ .

الجديدة ما فى القصيدة الأصلية . ومن المعارضات التى من هذا القبيل القصيدة التى عارض فيها شرف الدين ظفر ابن الوزير ابن هبيرة قصيدة للأبيوردى مطلعها :

ترنّح من بَرَح الغرام مشوق
عشيـــةَ زُمّتْ للتفـــــرق نوق[1]

ومطلع قصيدة ابن هبيرة :

ترنّح من بَرَح الغرام مَشوق
غداة نـأَت بالوائلية نوق

ومن هذا القبيل أيضاً قصيدة الأبيوردى :

لمعت كناصيـــــــة الحصان الأَشقر
نارٌ بمعتلـــــجِ الكثيب الأَعفـــر[2]

التى عارضها أبو فراس على بن محمد العامرى بقوله :

لمعت وأَسرار الدجى لم تنشـــــــر
نارٌ كحاشية الرداءِ الأَحمـــــر[3]

وتحلل مفهوم المعارضات بعد ذلك من القيود الزمانية ، فصار الشاعر المحدث يعارض قصيدة الشاعر القديم دون أن يجمعها غير الإلهام الشعرى ،

---

(١) الديوان - القصيدة ٨٤ .
(٢) الديوان - القصيدة ٢٤ .
(٣) انظر فيما تقدم الخريدة - قسم شعراء العراق ١ : ١٠٦ - ١٠٧ ، ٢ : ١٥٧ .

وهكذا حمل مفهوم المعارضة طابعاً جديداً ، فإذا كتب لقصيدة نصيب من الذيوع والشهرة ، وكثر ترديدها على الألسنة فى أحد العصور ، تلقفها الشعراء فى سائر العصور فنسجوا على منوالها ورددوا معانيها بعد أن ألبسوها اللبوس الذى ارتضوه لها ، محافظين على وزنها وقافيتها ، فكان ما رأينا من مثل معارضة بردة البوصيرى التى مطلعها :

أَمن تذكُّـــر جيرانٍ بذى سَلَم
مزجتَ دمعاً جرى من مقلةٍ بـــدم

وأشهر ما عورضت به قصيدة شوقى :

ريم على القاع بين البان والعـــلم
أَحـــلّ سفك دمى فى الأَشهر الحُرُم

وما رأيناه أيضاً من معارضة شعراء القرن الخامس إحدى قصائد المعرى ، فقد عارض الأبيوردى قصيدة المعرى :

لِمَن جيـــرةٌ سيموا النوال فلم ينطوا
يظلِّلهُمْ ما ظلّ يُنبتُـــهُ الخـــطّ[1]

بقصيدة مطلعها :

بـــدا والثريا فى مغاربها قُـــرط
بُريقٌ شجانى والدُّجـــى لِمَمٌ شُمْط[2]

---

(١) شروح السقط ٤ : ١٦٠٦ .
(٢) الديوان – القصيدة ٩ .

وذكر العماد أنه « لم يبق من شعراء العصر إلا وله على وزنها[١] » .

وقصيدة « بانت سعاد »[٢] التى نظمها الشاعر المخضرم كعب بن زهير ابن أبى سلمى ، وصدر بها ديوانه ، هى إحدى القصائد التى ذاعت فى الشعر العربى ذيوعاً قل نظيره ، فتداولها الشعراء على مر الحقب الأدبية وصاغوا منها حجباً علقوها فى صدور دواوينهم وزينوها بها . وقد خاض شاعرنا الأبيوردى غمار هذه التجربة الشعرية ، فنظم أولى قصائد ديوانه فى مديح النبى صلى الله عليه وسلم[٣] ، حاذياً حذو كعب ومتطلعاً إلى قصيدته .

٢ – بدأ كعب قصيدته بالتغزل بمحبوبته ، وبعبارة أدق بوصف بعض محاسنها وصفاً حسياً . ثم انتقل إلى الحديث عن صدودها وتقلبها وإخلافها الوعود ، وخلص من ذلك إلى وصف الناقة التى توصل إلى الحبيبة وصفاً مفصلا . وهذا الوصف أطول أقسام القصيدة . وطرق بعدئذ موضوع القصيدة الرئيسى وهو الاعتذار إلى الرسول ومدحه – وضمنه بعض الحكم – وإظهار هيبته . وختم قصيدته بمديح المهاجرين من الصحابة .

أما الأبيوردى فقد بدأ قصيدته بالحنين ووصف الراحلة ، ثم انتقل إلى وصف من يتغزل بها وصفاً حسياً ، وخلص من ذلك إلى مدح الرسول الكريم وأصحابه الراشدين .

---

(١) انظر الشعر العربى ٥ : ٢٠٢.

(٢) مطلع القصيدة :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول متيم أثرها لم يجز مكبول

وهى فى ديوان كعب ص ٦ – ٢٥ .

(٣) مطلع القصيدة :

خاض الدجى – ورواق الليل مسدول – برق كما اهتز ماضى الحد مصقول

(ديوان الأبيوردى – القصيدة الأولى) .

وفيما يلى جدول لبيان أقسام كل من القصيدتين ، مقرونة بأرقام الأبيات التى خصصت لكل قسم فيهما :

قصيدة كعب

١ — ٥	فى وصف سعاد وبينها
٦ — ١٢	فى الصدود وإخلاف الوعود
١٣ — ٣١	فى وصف الناقة
٣٢ — ٤٨	فى الاعتذار والحكمة ومدح الرسول (وفيه وصف الأسد ٤٣ — ٤٧)
٤٩ — ٥٥	فى مديح المهاجرين

قصيدة الأبيوردى

١ — ٧	فى الحنين ووصف الراحلة وصاحبها
٨ — ١١	فى وصف سليمى
١٢ — ٢٤	فى مديح الرسول
٢٥ — ٣٠	فى مديح الصحابة

ومما يمكن استنتاجه مما تقدم ، الملاحظات التالية :

(أ) خلت قصيدة الأبيوردى من الاعتذار الذى اقتضته المناسبة التى نظمت من أجلها قصيده كعب .

(ب) أغرق كعب فى وصف راحلته وإظهار قوتها ، وهو أمر استمده من البيئة ، ومن طبيعة تكوين القصيدة الجاهلية .

(ح) رأى كعب أن يصور هيبة الرسول تصويراً حسياً ملموساً فساقه ذلك إلى بيان هيبة الأسد وسطوته ، لينفذ منه إلى المفاضلة بين الهيبتين .

(د) الأبيات التى تناولت مديح الرسول وصحابته فى قصيدة كعب ثمانية عشر بيتاً من مجموع أبيات القصيدة البالغ خمسة وخمسين مقابل تسعة عشر بيتاً فى قصيدة الأبيوردى مما مجموعه ثلاثون .

فماذا حملت الأبيات المتقابلة التى امتدح بها الرسول وأصحابه بوجه خاص ؟ والأبيات التى تناولت الأفكار ذاتها فى الوصف والغزل وما إليهما بوجه عام ؟ وماذا نجد بعد ذلك فى الأبيات التى تفردت بها قصيدة كعب ؟

٣ ــ كانت النقلة مما قبل المديح إليه متشابهة فى القصيدتين ، والمدخل إلى المديح فيهما متماثلا . فبعد أن استوفى كعب وصف ناقته وصفاً مفصلا دقيقاً ، خلص إلى المديح مؤملا عفو النبى ، ملتجئاً إليه بعد تخلى أصحابه عنه ، معتذراً عما تناقله عنه الوشاة ، قانعاً بأن ما قدر له كائن ، قاصداً فى ذلك رضاء الله :

وقال كــلّ خليــلٍ كنت آمُلُه
لا أُلْفِيَنَّكَ إنى عنــك مشغول

فقلتُ خَــلُّوا طريقى لا أَبا لكمُ
فكلُّ ما قــدّر الرحمن مفعــول

أُنبئتُ أَنَّ رســول الله أَوعدنى
والعفوُ عند رسول الله مأْمــول

لا تــأْخذنِّى بأَقوال الوشاة ولــم
أُذْنِبْ وإِنْ كثرتْ عنِّى الأَقاويل

أما الأبيوردى فقد عف عن التى وصفها ، وحال بينه وبين النسيب انشغاله بمديح النبى القرشى ، تقرباً إلى الله وابتغاء مرضاته :

صدَّت ووقــرنى شيبى فما أَرَبى
صهباءُ صرفٌ ولا غيداءُ عطبول

وحال دون نسيبى فى الدّمى مِدَحٌ
تحبيرُها بِرضى الرحمن موصول

أزيرها قــرشياًّ ، فى أَسرّتــه
نــورٌ ، ومن راحَتَيْهِ الخيْرُ مأْمول

أما الخلال التى خلعها كعب على ممدوحه الكريم ، فأبرزها ما أنعم الله به على نبيه من معجزة القرآن ، وما أعطيه من الشجاعة والقوة . :

مهلاً هداك الذى أَعطاك نافــلة ال
قرآن فيها مواعيظٌ وتفصيــل

إِنَّ الرســول لسيفٌ يستضاءُ به
مهنَّــدٌ من سيوف الله مسلول

وما رزقه من الهيبة التى تتضاءل أمامها هيبة أسد مكانه غيضة دونها غيضة ، يغذو أشباله بلحوم الفرائس المطروحة فى الكفر ، ويفل أقرانه ، ويقضى على من يجوز حماه فيلغى ممزق الثياب مأكولا :

لَذاك أَهيبُ عنـــدى إذْ أُكَلِّمُهُ
وقيـــل إنك منسوب ومسئول

مِن ضيغمٍ من ضِراءِ الأُسد مُخْدَرُه
ببطنِ عَثَّـرَ غِيـلٌ دونـه غِيل

يغـــدو فَيَلْحَمُ ضرغامَيْن عَيْشُهما
لحمٌ من القـــوم مغفورٌ خَراذيل

إذا يُساور قِرْناً لا يَحِـلُّ لـــــه
أَن يَتركَ الْقِـرْنَ إلا وهو مفلول

ولا يزالُ بِـــواديـــه أَخو ثقةٍ
مُطَّـــرِحُ البَزِّ والدَّرْسانِ مأْكول

وغير هذه الخلال التى وصف بها الأبيوردى الرسول الكريم ، فهو — بعد أن وصف فيما تقدم طلاقة وجهه وتهلله ، وفيض الخير من راحتيه — يذكر طيب شمائله ، ووفرة عطائه ، وعصمته ، وكرم نسبه :

تحكى شمائلُـــه فى طيبها زَهَرًا
يفوح ، والروض مرهوم ومشمول

هو الذى نعش الله العباد بـــه
ضخمُ الدَّسيعة ، متبوع ومسئول
فكل شىء نهاهُمْ عنه مُجْتَنَـــبٌ
وأَمْـــرُه ، وهو أَمر الله ، مفعول
من دوحةٍ بَسَقَتْ ، لا الْفَرْعُ مؤتشبٌ
منهـــا ، ولا عِرْقها فى الحىّ مدخول

ثم يذكر خلاص البشر على يديه ، وتحررهم من إسار الغى وعوادى الكفر :

أَتى بمـــلَّة إبراهيمَ والـــــــدِهِ
قَـرْمٌ على كرم الأَخلاق مجبول
والناس فى أُجّـــةٍ ضلّ الحليم بها
وكلهمْ فى إسار الغَىِّ مكبول
كأَنَّهُمْ وعوادى الكفر تُسْلِمُهُمْ
إلى الردى ، نَعَمٌ فى النَّهب مشلول

بعد ذلك ينصرف الشاعران إلى مديح الصحابة ، فلا يكتفى كعب بمديح المهاجرين ، بل يعرض بالأنصار لما قيل من وثوبهم عليه ، فيشيد بشجاعة هؤلاء ويأخذ على أولئك فرارهم :

يمشون مَشْىَ الجِمال الزُّهْرِ يَعصمهمْ
ضَرْبٌ إذا عَرّدَ السّودُ التّنابيـل

ويشير إلى الهجرة وأنها ليست هجرة الضعاف المنهزمين ، ويمدحهم بعد ذلك بالشجاعة والقوة :

زالوا فما زال أنكاسٌ ولا كُشُفٌ
عند اللِّقـاءِ ولا ميلٌ معازيـل

شُمُّ العرانين أبطالٌ لَبوسُهُـمُ
مِن نَسْجِ داودَ فى الهيجا سرابيل

لا يقـع الطَّعنُ إلا فى نحورهمُ
ومالهمُ عن حياض الموت تهليل

ويخالف شاعرنا كعباً فى نظرته إلى الصحابة وتقديرهم ، فهو إذ يخص بالمديح الراشدين الأربعة ، يصرح بمحبة صحابة النبى جميعاً :

وكـلَّ صَحْبك أهوى فالهدى معهم
وَغَـرْبٌ من أبغض الأخيارَ مفلول

وأقتدى بضجيعَيْك اقتـداءَ أبى
كلاهما دَمُ مَن عاداه مطـلول

وَمَن كعثمان جوداً ، والسماحُ لهُ
عبءٌ على كاهــل العلياءِ محمول

وأَين مثلُ عليٍّ فى بسالتـــــــه
بمأزقٍ من يَرِدْهُ فهـــو مقتـــول

فمن أَحبهُمُ نال النجاة بهـــمْ
ومن أَبى حُبَّهمْ فالسيف مسلول

لقد تغزل كل من الشاعرين فى قصيدته ، فجاء غزل الأبيوردى سريعاً خفيفاً مستساغاً ، ولعله لم يكن مقصوداً لذاته ، فقد جمع فى بيتين اثنين مجموعة كبيرة من الصفات :

ريًّا المعاصم ، ظمأَى الخصر ، لا قِصَرٌ
يزوى عليها ، ولا يُزرى بها طُول

فالوجـــهُ أَبلجُ ، واللَّباتُ واضحةٌ ،
وفَرعُها واردٌ ، والمتنُ مجـــــدول

أما الصورة التى رسمها بعد ذلك فى بيت واحد فقد تناولها كعب فى ثلاثة أبيات . يقول الأبيوردى :

كأَنمـــا ريقُها ، والفجـــرُ مبتسمٌ
فيما أَظـــنُّ ، بصفو الراح معلول

ويقول كعب :

تجلو عوارضَ ذى ظَلْمٍ إذا ابتسمت
كأنــــه مُنْهَــــلٌ بالراح معــــلول

ونلاحظ أن كعباً لم يقف عند ثغر محبوبته ، بل مضى فى وصف ما مزجت به هذه الراح فقال :

شُجّتْ بذى شَمٍ من ماءِ مَحْنِيَــــةٍ
صافٍ بأَبطحَ أَضحى وَهْوَ مشمول

تجــــلو الرّياح القــــذى عنه وأَفْرَطَه
من صوبِ ساريةٍ بيضٌ يَعاليــــل

وتحول الشاعر من المعنى الأصيل إلى المعنى الطارئ من السمات الجاهلية فى المنحنى والأسلوب الشعرى . وتطبيقاً لهذا المنحنى نرى كعباً يقول فى بعد محبوبته :

أَمستْ سعادُ بأَرْض لا يبلِّغُهــــــا
إلاَّ العتاقُ النَّجيباتُ المـــــراسيل

وكان هذا كافياً فى الإبانة عن بعد الشقة . ولكنه وصف الناقة التى تبلغه تلك الأرض بنحو عشرين بيتاً حتى حسبنا أنه نسى المعنى الأصلى . ثم عاد بعد هذا كله إلى ما رمى إليه من استعطاف الرسول . ولم يغادر فى وصف راحلته صغيرة ولا كبيرة تتصل بذكر أعضائها وتصوير قوتها وسرعتها إلا أحصاها ، حتى إنه رسم مرامى أنظارها رسماً فنياً :

ترمى الغيـــوبَ بعينَىْ مفردٍ لَهَقٍ
إذا توقَّدتِ الحُـــزَّان والمِيـــــل

تَخدى على يَسَرَاتٍ وهْى لاحقـــةٌ
ذوابـــلٌ وقعُهنَّ الأَرضَ تحليـــل

سُمْرُ العُجايات يَتركن الحصى زِيماً
لم يَقِهِـــنَّ رؤوسَ الأُكْمِ تنعيل

ماذا فعل شاعرنا فى المقابل ؟ لقد أهمل صفة الراحلة الحسية ، وتجاوزه إلى ذكر حنين صاحب رحله وإعياء نضوه لبعد الشقة ، فى إطار من الحركة والانفعالات النفسية المضطرمة :

يَخـــدى بأَروَع لا يُغنى ، وناظرُه
بإثمـــد الليل فى البيداءِ مكحول

ولا يمـــرّ الكرى صفحاً بمقلتـــــه
فدونـــه قاتمُ الأَرجاء مجهـــول

إذا قضى عقب الإسراءِ ليلتَـــــه
أَناخـــه وهْو بالإعياءِ معقـــول

واعتاده من سليمـــى وهْى نائيـــةٌ
ذِكْـــرٌ يؤرّقـــه والقلبُ متبـــول

ماذا بقى من القصيدتين بعد ذلك ؟ بقى هذا المطلع الرائع الذى افتتح به شاعرنا قصيدته فشام برقاً تراءى له من تلقاء الحبيب ، فبكى فرق له صاحبه :

خاض الدجى ورواقُ الليـــل مسدول
برقٌ كما اهتزَّ ماضى الحدّ مصقول

أشيمُه وضجيعى صـــارم خَـــذِمٌ
ومِحْملى برَشاش الدمـــــــع مبلول

فحنَّ صاحبُ رَحْلى إذ تـامّـــــله
حتى حننتُ ونضوى عنه مشغول

ولو قرنا به مطلع قصيدة كعب وجدنا أنه لم يزد على ذكر الفراق الذى تيم قلبه المكبول :

بانت سعاد فقلبى اليـــوم متبول
متيمٌ إثْرَها لم يُجْـــزَ مكبـــول

وما سعادُ غـــداةَ البين إذ رحلوا
إلا أَغنُّ غضيضُ الطَّرف مكحول

ومن الغفلة أن نستهجن هذا الابتداء بالنسيب فى قصيدة أنشدت فى حضرة النبى ، لأن الاستهلال بالغزل كان من تقاليد الشعر العربى المستملحة التى لا ينكرها أحد .

٤ – إذا نظرنا إلى القصيدتين – من حيث التركيب والبناء العام – وجدناهما ينطلقان من منطلق واحد ، ويسيران فى خط واحد هو الالتزام بخط القصيدة التقليدى . وكما وجدنا كعباً ينهل من معين القصيدة الجاهلية « بمواصفاتها » المعروفة وقيمها السائدة . وجدنا شاعرنا الذى تفصله عن كعب خمسة من القرون يسير على نهجه ويلتزم بما التزم به .

وبسبب من هذا الالتزام باستيفاء أقسام القصيدة الجاهلية المعروفة ، وقع كعب فيما لا بد من الوقوع به ، فصار مدحية لم يزد عدد الأبيات التى مدح فيها النبى وصحابته عن ثلث مجموع أبيات القصيدة . واستناداً إلى ذلك لا نجد أنفسنا مغالين إذا زعمنا أن هذه القصيدة قصيدة وصفية تخللتها أبيات فى المديح ، وطغى فيها الجانب الوصفى على ما سواه طغياناً مبيناً .

ثم إن الوصف الذى جاء به لا نسيغه ولا نستطرفه فى بعض حالاته ، ولكن كان عدم الاستساغة فى بعض الحالات مرده – فيما نظن – إلى اختلاف الأذواق الأدبية باختلاف العصور والأزمان ، مثل ما جاء فى البيت الذى ذكر فيه الأسنان فشبه ماءها بماء بارد صاف مستنبط من أحد الأباطح :

شُجَّتْ بذى شَبَم من ماءِ مَحْنِيَـــةٍ
صافٍ بأَبطَحَ أَضحى وهْـــو مشمول

فإن مرد هذا التعجب فى حالات أخرى ، إلى أننا لا نقف على إحسان الشاعر فى إيراد بعض المشاهد مثل قوله :

وما سعاد غـــداةَ البين إذ رحـلوا
إلا أَغنُّ غضيضُ الطَّرف مكحول

فهلا كانت سعاد أغن ذات طرف غضيض مكحول إلا غداة الرحيل ؟ ولم نعتها بهذه النعوت حالة ترائيها للبين واستعدادها للفراق؟

ومثل قوله :

لقـــد أَقُومُ مَقاماً لـــــو يقوم به
أَرى وأَسمعُ ما لو يَسمعُ الفيـــــل
لَظَـــلَّ يُرْعَدُ إلا أَن يكون لـــــه
من الرســـــول بإِذن الله تنويـــــل

فقد توهم — بمقتضى هذه الصورة الساذجة — أن الفيل لعظم هامته يرى ويسمع كأحسن ما يكون السمع والرؤية !

ولو تتبعنا ما نعت به الشاعران النبي الكريم لإظهار مناقبه الشريفة وخصاله الحميدة وجدنا أنها صفات ومناقب عادية ، يمكن أن تنسحب على أى ممدوح فى أية قصيدة مدحية فقد مدح فى قصيدة كعب بالعفو وصدق القول والجلال والشجاعة ، ووصف فى قصيدة الأبيوردى بتهلل الجبين وطيب الشمائل وكثرة العطاء وارتفاع النسب ونقائه وكرم الخلق وبأنه المنقذ من الضلال . ولم يمدح النبي بما اختص به إلا بما جاء فى قصيدة كعب من ذكر القرآن معجزته الكبرى . ولكن تفرد النبي دون العالمين ، بميزات وخصائص متعددة ، لو أحسن الشعراء ذكرها والإشادة بها ، لسمت مدائحهم وتميزت .

نخرج من دراسة القصيدتين بملامح وإشارات عامة أبرزها أن الانطباعات التى خلفتها فى نفوسنا هاتان التجربتان الشعريتان انطباعات سطحية خفيفة ، وأن الإحساس الذى انطوت عليه نفوسنا تجاههما لا يختلف عن الإحساس بأى قصيدة مدحية تقليدية . وقد لا نحس فيهما حرارة المديح ودفق العاطفة بما يتلاءم وشخصية الممدوح ورفعته .

الفصل الثانى

الأبيوردى الناثر

١

تمهيد

لم يكن الأبيوردى شاعراً متقدماً فحسب ، ولكنه كان ناثراً جمع كثيراً من العلوم والمعارف الإنسانية[١] . ونظرة واحدة فى ثبت آثاره ومؤلفاته تدل على واسع معرفته وعظيم فضله . ولكن الأيام قست عليه فلم يسلم له عليها سوى كتاب واحد هو الموسوم بـــ « زاد الرفاق فى المحاضرات » وعدد محدود من القطع النثرية . وتركته هذه القليلة تجعل التحقق مما وصف به نفسه من معرفة وسعة اطلاع أمراً صعباً ، مع أن شعره يثبت كثيراً من ذلك ويدل عليه بسهولة ويسر .

ومن المعلوم أن هنالك فرقاً بين النثر الفنى والتأليف ، وأن للنثر من الأدوات والوسائل والمصطلحات ما ليس للكتابة ، وأن الحدود بينهما تضيق بمقدار ما يتجاوز الكاتب تلك الأدوات والمصطلحات فى نثره وكتابته أو يأخذ بها فيهما معاً . وقد تلاشت هذه الفروق عند الأبيوردى لسببين :

---

(١) من جملة معارفه التى ذكرها لنفسه أنه فى اللغة أبو زيد ، وفى الغريب أبو عبيد ، وفى العروض والقوافى الخليل والأخفش ، وفى الحديث والأثر سفيان والأعمش ، وفى التفسير مجاهد والكلبى ، وفى الفقه مالك والشعبى ، وفى البلاغة جعفر ، وفى تاريخ الأيام أبو عبيدة معمر ، وفى الكتابة عبد الحميد ، وفى الفلسفة ابن العميد . . . انظر الورقة الخامسة بوجهها من مخطوطة « زاد الرفاق » .

الأول : أنه اصطنع فى كتابته وتأليفه ما يصطنع عادة فى النثر وألوان الترسل من تزيين وألوان بلاغية وأسجاع بشكل خاص . يقول فى مقدمة كتابه المذكور « وهذه الأسجاع تسترقص بها الأسماع . ولا أروم السجع تعسفاً فأسوم الطبع تكلفاً ، وهو فى محاورات الإخوان يستحسن ، وفى غيرها إن أكرهت القريحة عليه يستهجن . فإنى لا أمارس الألفاظ حتى يصحب أبيها ، ويسمح فى مقادته عصيها ، فتزيغ هواديها إلى عجالا ، وتزدحم شواردها على أرسالا . . . »[١] .

الثانى : أن بعض قطعه النثرية مأخوذة من كتاب المذكور بعد اختصارها وتشذيبها بما يناسب المقام . فقد عثرت على أن القطعة التى جعلها مقدمة لديوان العراقيات أخذت فقرات منها من « زاد الرفاق » وأجرى عليها شىء من الحذف والتغيير . ومن ذلك قوله فى سياق طويل « والشعر بمنزلة الكلام حسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن من الشعر لحكماً » . وقال الشعبى : كان أبو بكر شاعرا وكان عمر شاعراً وكان على أشعر الثلاثة . . . »[٢] .

وتفريقنا بعد ذلك بين نثره وكتابته استدعته صناعة فى النثر ألزم وتوفر عليها أشد ، ورغبة فى الاطلاع على أسلوبى الإنشاء عنده .

٢

أنموذج من نثره

سلم لنا من نثر الأبيوردى أربع قطع :

— مقدمة العراقيات .

— مقدمة النجديات .

---

(١) الورقة ٤/ب من المخطوطة .

(٢) زاد الرفاق — الورقة ٣٦/أ وانظر مقدمة العراقيات .

— رسالة إلى صديق له فى تهنئته بمولود جاءه[١] .

— رسالته إلى الخليفة المستظهر فى الاعتذار عن مغادرة بغداد ، حيث حمل على مغادرتها فى إحدى فترات حياته[٢] .

يتعرض الكاتب فى مقدمة عراقياته للحديث عن أهمية الشعر ومنزلته عند العرب . ويطالعنا بعد ذلك بنظرة نقدية فى بيان أنصع الشعر وأسلمه . ثم يقدم بين يدى شعره ما حمله على توجيه بعضه للممدوحين ، وينفذ من ذلك إلى رأى فى أكثر أغراض الشعر المتداولة . وبعدئذ يوضح أسباب جمع الديوان — وأهمها خوف الضياع وتحريف الرواة — وسبب تسميته بالعراقيات .

أما مقدمة النجديات — وهى أصغر حجماً من سابقتها — فقد بدأها بالكلام على فضل الشعر . ثم تناول شعره الذى نظمه فى حياته فقسمه إلى جزأين : الأول الشعر الذى نظمه فى الفخر وشكوى الزمان وسماه العراقيات وجمعه فى ديوان مستقل ، والثانى شعر النسيب والغزل الذى يقدم له وسماه النجديات . ووضح دواعى اتجاهه للنظم فى هذين المضمارين الواسعين .

وعمل لنجدياته خاتمة من بضعة أسطر مدح فيها راوِيَى هذه الأشعار ، وهما اثنان من أصحابه نظم النجديات تلبية لطلبهما .

ورسالة التهنئة كتبها إلى أحمد بن سعد بن على الملقب ببديع الزمان يبارك فيها بمولود له . وقد بدأها بدءاً مباشراً من غير تقديم الدعاء كما جرت

---

(١) الرسالة ملحقة بمخطوطة العراقيات المحفوظة فى دار الكتب ، وهى أصل مخطوطات الديوان . وانظرها فى الورقة ١٢٩ بوجهيها فى الديوان المحقق .

(٢) الرسالة والقصيدة الملحقة بها فى معجم الأدباء ١٧ : ٢٤٧ — ٢٥٧ . والقصيدة فى الديوان برقم ٣٠ .

العادة فى المكاتبات الإخوانية ، استهلها ببيتين من الشعر فى الترحيب بالوليد « الأموى » الجديد ، واتخذ من هذه المناسبة — شأنه فى كل مناسبة — وسيلة للفخر بنسبه وأمويته . واستطرد إلى تفضيل الأولاد على البنات بمنطق جاهلى ، وخلص من ذلك إلى تهنئة صديقه بمولوده .

والقطع الثلاث تسير على نمط واحد يتفق وما سنذكره حول رسالة الكاتب إلى الخليفة من الأخذ بالسجع والتنميق الذى لا يحس القارئ بالإفراط فيه ، ولا يشعر بالثقل فى متابعته ، لأن غلبة الأفكار وتوارد المعانى تشغله بمتابعتها أكثر مما يشغله أسلوب السجع ويلفت نظره .

ونثبت الآن رسالته إلى الخليفة ، ونلقى عليها نظرات سريعة نخلص منها إلى كلمة عن نثر الأبيوردى .

« إحسان المواقف المقدسة النبوية الأمامية ، الطاهرة الزكية المسجدة العلية — زاد الله فى إشراق أنوارها ، وإعزاز أشياعها وأنصارها ، وجعل أعدائها حصائد نقمها[١] ، ولا سلب أولياءها قلائد نعمها — شمل الأنام و غمر الخاص والعام . وأحق خدمها بها من انتهج المذاهب الرشيدة فى الولاء الناصع ، والتزم الشاكلة الحميدة[٢] فى الثناء المتتابع . ولا خفاء باعتلاق الخادم أهداب الإخلاص ، واستيجابه مزايا الاجتباء والاختصاص ، لما أسلفه من شوافع الخدم[٣] ، ومهده من أواصر الذمم ، متوفراً على دعاء يصدره من خلوص اليقين ، ويعد المواصلة به من مفترضات الدين . ولئن صدت الموانع عن المثول بالسدة المنيفة ، والاستذراء بالجانب الأكرم

---

(١) أى استأصلهم استئصال الزرع المحصود .
(٢) الطريقة المحمودة .
(٣) أى الخدمات التى تشفع له .

فى الخدمة الشريفة ، فهو فى حالتى دنوه منها واقترابه ، وتارتى انتزاحه عنها واغترابه ، على السنن القاصد[١] فى المشايعة مقيم ، ولما يشمله من نفحات الأيام الزاهرة مستديم . وقد علم الله سبحانه — ولا يستشهده كاذباً إلا من كان لرداء الغى جاذباً — أنه مطوى الجنان على الولاء ، منطلق اللسان بالشكر والدعاء ، يتشح بهما الصبح كاشراً عن نابه[٢] ، ويدر عهما الليل ناشراً سابغ جلبابه . وكان يغب خدمه[٣] اتقاء لقوم يبغونه الغوائل ، وينصبون له الحبائل ، وتدعوهم العقائد المدخولة[٤] إلى تنفيره ، ويزنون عنه[٥] غير ما أجنه فى ضميره ، ولا يرقبون فى مؤمن إلا ولا زماماً[٦] ، ويزيدهم الاستدراج على الجرائم جرأة وإقداماً ، حتى استشعر وجلا ، فاتخذ الليل جملا ، والتحف بناشئة الظلماء[٧] والفرار مما لا يطاق من سنن الأنبياء . ولم يزل يستبطئ فيهم المقادير ، والأيام ترمز بما يعقب التبديل والتغيير ، فحاق بهم مكرهم ، وانقضت شرتهم[٨] وشرهم :

عذرت الذرا لوخاطرتنى قرومها ... فما بال أكاريه فدع القوائم[٩]

وعاود الخادم المثابرة على المادح الأمامية مطنباً ومطيلا ، إذ وجد إلى مطالعة مقار العز والعظمة ومواقف الإمامة المكرمة بها سبيلا . وهذه فاتحة ما نظم ، وانتهز فرصة الإمكان فيه واغتنم . . » .

---

(١) الطريق المستقيم .
(٢) متبسما عن ضوئه .
(٣) أى يفرق بينها .
(٤) الفاسدة .
(٥) يتهمونه .
(٦) الإل : القرابة . والذمام : العهد .
(٧) أول الليل .
(٨) حدتهم وطيشهم .
(٩) خاطرتنى : واهنتنى . وقرومها : عظماؤها . الأكار : الزراع . الأفدع : معوج المفاصل .

هذه الرسالة جواب عن الكتب التى خرجت من الديوان الخلافى فى معاتبة الشاعر الأديب على مفارقة بغداد ، وهى تدل على صحة ما نسب إليه من الهرب منها على حد قول ياقوت[١] . ويمكن تقسيمها إلى أقسامها الرئيسية التالية :

— بدء الرسالة بذكر شمول نعم الخلافة ، والدعاء لمقامها بازدياد الأنصار وهلاك الأعداء .

— القيام على الطاعة والولاء فى حالتى القرب والبعد واعتبار ذلك من الفروض الدينية .

— بسط العذر فى الابتعاد اتقاء لقوم من الحاسدين والموتورين .

— ختم الرسالة بتأكيد الولاء بقصيدة طويلة فى مدح الخليفة .

ويمكن أن نسلك هذه الرسالة فى عداد الرسائل الديوانية المرفوعة إلى مقام الخلافة ، بمعنى أنها كتبت بأسلوبها . وسنتبين مدى التزام الرسالة الأصول المتبعة فى كتابة الرسائل الديوانية .

فمن تلك الأصول الإتيان فى صدر المكاتبة بما يدل على عجزها ليعلم من مبدأ الكتاب ما المراد منه[٢] . وفى مقدمة الرسالة المستفيضة بذكر نعم الخلافة وشمولها ، وما يتبع ذلك من ذكر الإقامة على الطاعة ومداومة الولاء ، تبرئة لمقام الخلافة من أى قصور دعا إلى الابتعاد ، وتنصل مما يخطر على البال من خلع الطاعة وإظهار الجفاء . وفى هذا إشارة واضحة إلى صلب الرسالة فى الاعتذار ، وكأن الكاتب لوح من البداية إلى أنه سيعتذر عن أمر لا بد له أو للمقام الخلافى فى وقوعه .

---

(١) معجم الأدباء ١٧ : ٢٤٧ .

(٢) صبح الأعشى ٦ : ٢٧٦ .

ومنها مراعاة القصد فى الرسالة ، فلا هى أطيلت إطالة إملال ، ولا اختصرت اختصار إخلال ، فكان طولها مناسباً لموضوعها . وكأن هذه الديباجة النثرية مقدمة لقصيدة المدح التى ختمت بها .

ومنها حسن اختيار موضع الشعر والاستشهاد به ، واختتام الرسالة بقصيدة مدحية موافقة للمقام وملائمة له وكانت مناسبة الرسالة فرصة طيبة للتقدم من الخليفة بإحدى قصائد المديح .

ومنها مراعاة الأصول المتبعة فى مكاتبة الخلفاء ومخاطبتهم . فابتدئت الرسالة بإطراء الخلافة والدعاء لها ، كالدعاء بإشراق الأنوار وإعزاز الأشياع وهلاك الأعداء . . وظهرت فيها ألفاظ الخضوع والتبعية مما كان مستعملا آنئذ كالخدمة والمثول بالسدة والاستذراء بالجناب . . وأثبت الكاتب ولاءه بقسم لطيف الأداء قريب المأخذ وهو قوله : وقد علم الله سبحانه — ولا يستشهده كاذباً إلا من كان لرداء الغى جاذباً — أنه مطوى الجنان على الولاء . . .

وقد استعمل الكاتب فى رسالته أسلوب الازدواج فى تركيب الجمل والعبارات وهو من خصائص الكتابة فى القرن الرابع التى انتقلت إلى القرن الخامس ، والتى عبر عنها أبو هلال العسكرى (ت ٣٩٥) بقوله : «لا يحسن منثور الكلام ولا يحلو حتى يكون مزدوجاً ، ولا تكاد تجد لبليغ كلاماً يخلو من الازدواج »[١] ولم يكتف الكاتب بهذا الازدواج بل نمقه بالسجع والتزمه فى الرسالة التزاماً فى عباراتها جميعاً . وهذا الالتزام أمر متكلف يثقل على الكاتب والسامع معاً إلا إذا غلبت عليه المقدرة البلاغية والأسلوبية ، فأخفت

---

(١) الصناعتين ص ٢٠٠ .

التكلف الناشئ عن السجع ، وأسبغت على القطعة النثرية رونقاً وطلاوة . وامتازت أسجاع الرسالة بجمال العبارة ووقوعها مواقعها ، وبعدها عن الابتذال ، ودلالة كل من فقرتى السجعة الواحدة على معنى غير الذى دلت عليه الفقرة الأخرى . ومع أن الأبيوردى كتب رسالته بأسلوب العصر المسجوع المتأثر بالمقامات ،إلا أن الفرق بين أسلوب هذه الرسالة وأسلوب المقامات أن فى سجعها رونق الزينة ، وعليه سيما الصنعة المقبولة . أما مقامات الحريرى « فقد كتبت فى ظلال مذهب التصنيع وزخرفه »[1] .

وعمد الكاتب أيضاً إلى استعمال المحسنات اللفظية والمعنوية ، فتأنق فى اختيار ألفاظه وعباراته ، وقرب معانيه بجميل الاستعارات والتشبيهات ما أورده من نصوع الولاء ، واعتلاق أهداب الإخلاص ، واتخاذ الليل جملا ، والالتحاف بناشئة الظلماء ، وتكشير الصبح عن نابه ، ونشر الليل سابغ جلبابه ، مما أسبغ على الرسالة مظهراً خلاباً وخلع عليها حلة قشيبة .

ويمكن القول أن الأسلوب الذى اتبعه الأبيوردى فى كتابة هذه الرسالة اتبعه فى كتابة بقية أنموذجاته النثرية ، وإن اختلفت كل من هذه الأنموذجات عن الأخرى فى موضوعها ، فاختلفت تبعاً لذلك طريقة الأداء بما يناسب الموضوع .

فنى نثره الالتزام التام بالسجع والازدواج كما قدمنا . وكان يكتفى العبارات المسجوعة أحياناً كقوله « ولما كان الامتداح يشين الكرام ، والهجاء يستثير اللئام ، والدهر أهله هازلون ، وبالمحل الآخر من الفضل نازلون ، طفقت أنظم الشعر فيما أشكو به نبوة الزمان ، أو فى فخر ليس

---

(١) الفن ومذاهبه فى النثر العربى ١٤٩ .

إلا لذوى البيوتات الشريفة به يدان . . »[١] ويقابل بينها أحياناً أخرى مثل قوله :« واعدل عن القناع والمجمرة ، إلى اليراع والمحبرة ، وعن تفصيل الوشاح ، إلى تحصيل الألواح . . »[٢] فى هاتين العبارتين موازنة لكل كلمة بما يقابلها ، فقد استعمل فى السجعة الأولى الجار والمجرور وما عطف عليه ، واستعمل فى الثانية الجار والمجرور وما أضيف إليه ، ويلاحظ فى كل ذلك أن الكاتب لم يلزم نفسه بسجع طويل أو قصير ، بل كان يأتى بهما معاً .

وربما ضمن أسجاعه مقتبسات من الآيات القرآنية كما رأينا فى رسالته إلى الخليفة فى مثل قوله : « ولا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذماماً »[٣] :

ونجده يستخدم أحياناً الصور الشعرية كالتشبيه والاستعارة والمحسنات البلاغية ، فمن ذلك قوله إن أحسن الشعر ما « لم يستعن بوحشى الكلام فيه ولا ريضت باقتسار أبية قوافيه ».[٤] وقوله : إن صاحبيه « كانا يرتاحان للنسيب الرقيق ، وينظمها وطالبى اللهو سلك الطريق ، ويختاران من القريض ما رعفت به خياشيم نجد » . وقوله : « فغرضت منها الهمة ، وعرضت دونهما الأمور المهمة »[٥] .

٣

أنموذج من تأليفه

لم يسلم لنا من مؤلفات الأديب الأبيوردى النثرية سوى كتاب « زاد

---

(١) مقدمة النجديات .
(٢) رسالته فى تهنئة صديقه بمولوده .
(٣) مأخوذ من قوله تعالى :« كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة » التوبة : ٨ .
(٤) مقدمة العراقيات .
(٥) مقدمة النجديات .

الرفاق »[١] الذى ما زال مخطوطاً كما قدمنا وكتاب « المختلف والمؤتلف ». وقد أتاح لنا وجود الزاد بين أيدينا الاطلاع على أسلوب الكتابة الذى اتخذه المصنف ونهج التأليف الذى سلكه .

وقبل أن نورد أنموذجاً من الكتاب المذكور نعرف به بكلمة : نعلم من مقدمة الكتاب أنه كان للمؤلف صديق أخلص له الود ثم شغل عنه بالشراب وأدل عليه بالمعرفة ، ولكنه احتاج إلى سؤاله عن شىء عن له فى علم الأنواء ، وما قيل فيه ، فكان هذا الكتاب هو الإجابة عن سؤال الصديق . وليس ذلك كل ما فيه ، فهو غنى بالمحاضرات فى الأنساب واللغة والشعر . وقد بدأ المصنف مقدمته الضافية التى عملها لكتابه بمعاتبة صديقه على مقاطعته ، وتعرض للصداقة ، ودعا إلى التواضع فى العلم ، ولم ينس من جانبه أن يدل بعلمه ونسبه ، وأن يذكر ذلك كله بأسلوبه الذى يعكس نفسيته الطامحة وعقليته النافذة . وقد بدأ مقدمته بعد حمد الله والصلاة على نبيه هكذا :

« أحقا عباد الله أن لست لاقيا بثينة أو يلقى الثريا رقيبها[٢]

علام أيها الأخ — وقاك الله المحذور ، ولقاك فى مقاصدك السرور — تضاهى النجم ورقيبه فى المقاطعة ، ولا تباهى الثريا والعيوق بالمطالعة ، فما لك

---

(١) له نسخة فى دار الكتب المصرية برقم (٥٨٢ أدب) مخطوطة بقلم معتاد بخط مصطفى الدمشقى . فرغ من كتابته فى دار السعادة « إسلامبول » فى اليوم الثانى عشر من شهر جمادى الأولى سنة ١٢٨٨ هـ . وبهامشه تقييدات كثيرة . وعنوانه الذى كتب بغير خط الناسخ : زاد الرفاق فى المحاضرات لصدر الدين الأبيوردى . ولم نعرف له هذا اللقب فى غير هذا الموضع إلا أن المؤلف ذكر جده وأفاض فى الكلام على نسبه (الورقة ٨/ب) فثبتت بذلك نسبة الكتابة إليه .

(٢) البيت لجميل فى ديوانه ص ٣١ . ورقيب الثريا النجم الذى يتبعها ولا يفارقها فلا يزال يرقب طلوعها .

على الهجر مصراً ، وبمظنة الغدر مستمراً[١] ؟ . . . وأذقتنى مرارة البين ، وملت إلى ارتشاف الأعذبين ، وألهتك قهقهة الإبريق ، وأضربت صفحاً عن رعاية الصديق »[٢] .

وضمن مقدمته موضوع كتابه فقال « والأليق بى أن أتوقى الإطناب والإطالة ، وأختم بإيضاح ما سألتنى عنه الرسالة ، وهو تلخيص ما اشتبه عليك فى كتب الأنواء من أقوال العلماء والشعراء . . . »[٣] .

وخلاصة القول فى الكتاب أنه ثروة علمية وثروة أدبية حافلة بالشعر والنحو والغريب وما إليه . .

وهذا نص مستل من « زاد الرفاق » ننقله ثم نلقى عليه نظرة سريعة .

« (٣٨/ب) . . . وما أحسن قول محمد بن مناذر العنبرى : أشعر الناس من أنت فى شعره . وكان يونس بن حبيب يقول : الشعر كالشجاعة والسخاء والجمال ، أى مشترك . وقيل لابن عباس : من أشعر الناس ؟ فقال : إن شعراءكم قد قالوا فبلغ كل رجل منهم بعض ما أراد ، ولو كان لهم غاية يسبقون إليها يجمعهم فيها طريق واحد لعلمنا أيهم أسبق إلى تلك الغاية ، فإن يكن فالذى لم يقل عن رغبة أو رهبة امرؤ القيس بن حجر الكندى . ورب شعر قد استحسن ولو بولغ فى انتقاده لاستهجن . وليس التكلف أن تأتى بألفاظ وحشية غريبة ، فلا توجد من أفهام سامعيها قريبة ، ولكن المتكلف ما خولف به وجه الاستعمال وإن كان ظاهر اللفظ قريب المثار . وكل كلام قلق به موضعه لم يحسن عند البلغاء موقعه ، وسواء فى ذلك الأول (٣٩/أ)

---

(١) الأصل : وبمطية الغدد مستقراً . وهو تحريف .
(٢) الورقة ١ / ب .
(٣) الورقة ٢٧ / ب .

والآخر ، ومأخوذ به الكاتب والشاعر . وقال إبراهيم بن الحسن بن سهل : كان المأمون يتعصب للأوائل من الشعراء ، ويقول : انقضى الشعر بعد ملك بنى أمية . وكان عمى الفضل بن سهل يقول : الأوائل حجة وهؤلاء أحسن تفريعاً ، إلى أن أنشده يوماً عبدالله بن أيوب التيمى شعراً مدحه فيه[١] فلما بلغ قوله

تَـرى ظاهرَ المأمـون أَحسنَ ظاهرٍ
وأَحسنُ منـه ما أَسَرَّ وأَضمـرا

يناجى لـه نفساً تَـريعُ بهمّـةٍ
إلى كـل معروف ، وَقَلْباً مطهّرا

ويخضـعُ إجلالاً لـه كلُّ ناظرٍ
ويأبى بخـوف الله أَن يتكبّـرا

طويـلُ نجاد السيف مضطمر الحشا
طـواه طراد الخيل حتى تحسّرا

رِفَـلٌّ إذا ما السّلم رفَّلَ ذيـله
وإن شَمّرتْ يوماً لـه الحرب شمّرا

فقال الفضل[٢] : ما بعد هذا مدح ، وما أشبه فروع الإحسان بأصوله . ومن تصرف فى فنون الشعر فوضح كلامه ، وقل سقطه وحشوه ، وراقت

---

(١) أى مدح المأمون فيه .
(٢) الأصل : للفضل . واقتضى السياق التصحيح .

مطالعه ومقاطيعه ، واشتد أسر شعره ، مع ديباجة برق عليها ريحان القلوب وكأنه مغترف من بحر ، ومنتسف من صخر ، ولو شئت لقلت ليس بشعر — فهو الشاعر الذى لا يتوعر الكلام لعذوبة مخرجه وسهولة مطلبه ، ويلذ بالأفواه ذكره ، ويجوب البلاد شعره ، ويتدارسه (٣٩/ب) المعرق والمشئم ، ويتناشده المنجد والمتهم ، ويسير به الركب وهم كواكب فى أطراف داجية ، وقواضب على أثباج ناحية ، وترتج له المحافل بالثناء الجميل ، ويراه الحاسد أولى من النابغة بقول الخليل ، كأنما كان الشعر ثمرات تدانين من خلده فهو يجتنيهن اختياراً[1] وينسى به المجد الأثيل ، ويتمثل رواية بما قيل :

فإنْ أُهْلِكْ فقد أبقيتُ بعدى
قوافىَ تُعجب المتمثلينـــــــا
لذيذاتُ المقاطـــــــع محكماتٌ
لـــــو أنَّ الشعر يُلْبَسُ لارتُدينا!

يتناول هذا النص موضوعاً طالما تداولته الألسنة وأسهمت فيه أقلام الأدباء والنقاد ، وهو الشعر الأصيل والشعر المتكلف ، وأحسن الناس قول شعر . ونرى أن الكاتب جمع آراء بعض المتقدمين فى ذلك ، فأتى برأى محمد بن مناذر ويونس بن حبيب وابن عباس ، ثم أدلى برأيه الخاص فى الشعر الحسن والمتكلف ، وهو رأى بصير بالشعر مضطلع برسالته . وانتقل إلى شعر الأقدمين والمحدثين وفاضل بينهم ، وأتى بمثل لشعر محدث ، وخلص من ذلك إلى تعريف الشاعر الحق وذكر صفاته .

---

(١) الأصل : اختارا ، تصحيف .

والنص أشبه بإحدى الأمالى أو المحاضرات فى قواعد الشعر وأصوله ، ومن طبيعة هذا النوع من التأليف انتفاء وحدة الموضوع . ولو أعدنا النص إلى سياقه من الكتاب لوضح لنا ذلك تماماً .

تقدم أن الكتاب وضع للرد على سؤال من أحد أصدقاء الكاتب ، وقد ورثت الرسائل فى هذا العصر المحافظة على التأنق البديعى ورونقه وأصالته ، وورثت أيضاً التأثر — مع أنواع الكتابة الأخرى — بأسلوب المقامات وطريقتها فى الأداء . وقد انصرف الاهتمام أولا إلى مقامات بديع الزمان الهمذانى (ت ٣٩٣) وما لبث أن تحول إلى مقامات الحريرى (ت ٥١٦) التى صارت عمدة كتاب العصر والعصور اللاحقة ومرجعهم النحوى واللغوى والأسلوبى . وتبدو ظلال المقامات فى زاد الأبيوردى فى بناء الكتاب على السجع ، ولكن الكاتب أقل التزاماً به منه فى رسائله ، وأكثر بعداً عنه إذ روى حكاية أو نقل قولا أو شرح شعراً أو فسر غريباً فى اللغة . وقد أخذ به فى غير ذلك فى كتابه كله واستحسنه فى « محاورات الإخوان » كما تقدم فى مقدمة كتابه[1] . وإذا خفت وطأة الأسجاع فى موضوع قام مقامها التقسيم والازدواج ، وهو أقرب إلى إطلاق النفس على سجيتها فى التعبير .

وابتعد فى تصنيفه عن غريب الكلام وحوشيه ، ولكنه — وهو العالم باللغة — فعل هنا ما فعل فى رسائله ، فكان حريصاً على انتقاء ألفاظه وإحسان اختيارها ، فبدأ أسلوبه بعيداً عن التكلف حسن الوقع شديد الأسر . وقد أقل فى تأليفه من التشبيهات والاستعارات التى حشدها فى رسائله .

---

(١) الورقة ٤-ب .

والخلاصة أن الأبيوردى سلك فى زاده مسلكاً وسطاً بين طريقين :

طريق الأسلوب المتوازن الذى أخذ به الجاحظ ومن تبعه من المترسلين وأرباب التصنيف الأدبى فى القرن الرابع ، الذين لا يتقيدون بقيود الصناعة البديعية كالصولى (ت ٣٣٥) فى أدب الكتاب ، وعلى بن عبد العزيز الجرجانى (ت ٣٩٢) فى الوساطة ، وأبى هلال العسكرى (ت ٣٩٥) فى الصناعتين .

وطريق الأسلوب البديعى الصرف الذى بلغ أوجه فى نهاية القرن السادس على يد القاضى الفاضل (ت ٥٩٦) والعماد الأصبهانى (ت ٥٩٧) اللذين لم يقصراه على التأليف الأدبى بل أدخلا فيه كتابة التاريخ .

وكتابنا من حيث الأسلوب أشبه بيتيمة الثعالبى (ت ٤٢٥) فكلاهما جمع بين التوازن والازدواج والسجع .

المراجع

(أ) المخطوطة :

تاريخ الإسلام للذهبي (دار الكتب – ٤٢ تاريخ)

حجازيات الشريف الرضى (معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية)

ديوان الغزى (دار الكتب – ١٢٢ أدب)

زاد الرفاق للأبيوردى (دار الكتب – ٥٨٢ أدب)

سير أعلام النبلاء للذهبي (دار الكتب ١٢١٩٥ ح)

طبقات المفسرين للداودى (دار الكتب ١٦٨ تاريخ)

(ب) المطبوعة :

أخبار الدولة السلجوقية لعلى بن ناصر الحسينى (لاهور ١٩٣٣) .

الأعلام للزركلى (الطبعة الثانية – القاهرة)

أعيان الشيعة لمحسن الأمين العاملى (دمشق ١٩٣٨)

إنباه الرواة للقفطى – تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم (القاهرة ١٩٥٠ – ١٩٥٥) .

الأنساب للسمعانى (طبع حجر – الولايات المتحدة)

بانت سعاد – تحقيق المستشرق رينيه باسيه (الجزائر ١٩١٠)

البداية والنهاية لابن كثير (القاهرة)

بغية الوعاة للسيوطى – تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم (القاهرة ١٩٦٤ – ١٩٦٥)

تاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان

تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن (القاهرة ١٩٦٨)

تاريخ الخلفاء للسيوطى (القاهرة ١٣٠٥)

تاريخ دولة آل سلجوق للبندارى (القاهرة ١٩٠٠)

تاريخ الفكر العربى للدكتور عمر فروخ (بيرت ١٩٦٢)

تاريخ الكامل لابن الأثير (القاهرة ١٢٩٠)

تاريخ ابن الوردى (القاهرة ١٢٨٥)

تطور الأساليب النثرية فى الأدب العربى لأنيس المقدسى (بيروت ١٩٦٠)

الحضارة الإسلامية لآدم متز – ترجمة محمد عبد الهادى أبى ريدة (القاهرة ١٩٤٠ – ١٩٤١)

حماسة أبى تمام بشرح المرزوقى – تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون (القاهرة ١٩٥١ – ١٩٥٣ ، ١٩٦٧)

خريدة القصر للعماد الأصبهانى – قسم شعراء العراق – تحقيق محمد بهجة الأثرى (بغداد ١٩٥٥)

ديوان الأبيوردى (لبنان ١٣١٧)

ديوان الأبيوردى – تحقيق الدكتور عمر الأسعد (مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧٤ – ١٩٧٥)

ديوان امرئ القيس – تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم (القاهرة ١٩٦٤)

ديوان البوصيرى – تحقيق محمد سيد كيلانى (القاهرة ١٩٥٥)

ديوان أبى تمام بشرح الخطيب التبريزى – تحقيق محمد عبده عزام (القاهرة ١٩٦٤ – ١٩٦٥)

ديوان جميل – جمع وتحقيق حسين نصار (القاهرة بلا تاريخ)

ديوان الشريف الرضى (بيروت ١٣٠٩ و ١٩٦١)

ديوان صردر (القاهرة ١٩٣٤)

ديوان الطغرائى (القسطنطينية ١٣٠٠)

ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح العكبرى – تحقيق مصطفى السقا ورفيقيه (القاهرة ١٩٥٦)

ذكرى أبى الطيب للدكتور عبد الوهاب عزام (بغداد ١٩٣٦)

راحة الصدور للراوندى – تعريب الدكتور إبراهيم الشواربى ورفيقيه (القاهرة ١٩٦٠)

روضات الجنات للخوانسارى (طبع حجر ١٣٦٧)

شذرات الذهب لابن العماد (القاهرة ١٣٥٠ – ١٣٥١)

شرح ديوان الشريف الرضى لمحمد محيي الدين عبد الحميد (القاهرة ١٩٤٩)

شرح ديوان كعب بن زهير (مصورة طبعة دار الكتب ١٩٥٠ – القاهرة ١٩٦٥)

شروح سقط الزند (مصورة طبعة دار الكتب ١٩٤٥ – القاهرة ١٩٦٤)

الشريف الرضى للدكتور إحسان عباس (بيروت ١٩٥٩)

الشعر العربى فى العصر السلجوقى للدكتور على جواد الطاهر (بغداد ١٩٥٨ – ١٩٦١)

صبح الأعشى للقلقشندى (القاهرة ١٩١٣ – ١٩١٨)

الصناعتين لأبى هلال العسكرى (الآستانة ١٣١٩)

طبقات سلاطين الإسلام لستانلى لين بول – تعريب مكى طاهر الكعبى (بغداد ١٩٦٨)

طبقات الشافعية الكبرى للسبكى (القاهرة ١٣٢٤)

العبر فى خبر من غبر للذهبى – تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد (الكويت ١٩٦٣)

الفلاكة والمفلوكون لأحمد بن على الدلجى (القاهرة ١٣٢٢)

الفن ومذاهبه فى النثر العربى للدكتور شوقى ضيف (القاهرة ١٩٤٦)

اللباب فى تهذيب الأنساب لابن الأثير (القاهرة ١٣٥٧ – ١٣٦٩)

محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للشيخ محمد الخضرى (القاهرة ١٩٧٠)

مختصر أخبار الخلفاء لابن الساعى البغدادى (القاهرة ١٣٠٩)

المختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا (القسطنطينية ١٢٨٦)

المختلف والمؤتلف للأنبوردى – تحقيق الدكتور مصطفى جواد (مطبوع مع المختلف والمؤتلف لابن الصابونى – بغداد ١٩٥٧)

مرآة الجنان وعبرة اليقظان لليافعى (مصورة طبعة حيدر آباد الدكن ١٣٣٨ – بيروت ١٣٩٠)

مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان لسبط ابن الجوزى (حيدر آباد الدكن ١٩٥١)

مصنى المقال لآغا بزرك (إيران ١٩٥٩)

معجم الأدباء لياقوت – نشر مرجليوث (القاهرة ١٩٣٦ – ١٩٣٨)

معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى للمستشرق زامباور – إخراج الدكتور زكى محمد حسن ورفيقه (القاهرة ١٩٥٢)

معجم البلدان لياقوت (بيروت ١٩٥٥ – ١٩٥٧)

معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة (دمشق ١٩٥٧ – ١٩٦١)

المقامات الأدبية للحريرى (القاهرة ١٣٢٦)

المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزى (حيدر آباد الدكن ١٣٥٩)

النثر الفنى فى القرن الرابع للدكتور زكى مبارك (القاهرة ١٩٣٤)

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى (القاهرة ١٩٢٩ – ١٩٣٩)

نزهة الألباء فى طبقات الأدباء لابن الأنبارى – تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم (القاهرة ١٩٦٧)

نهاية الأرب للنويرى (القاهرة ١٩٢٥)

هدية العارفين (أسماء المؤلفين وآثار المصنفين) لإسماعيل باشا البغدادى (إستنبول ١٩٥٥)

الوافى بالوفيات للصلاح الصفدى – باعتناء ديدرنغ (إستنبول ١٩٤٩)

وفيات الأعيان لابن خلكان – تحقيق الدكتور إحسان عباس (بيروت ١٩٧٢)

يتيمة الدهر للثعالبى – تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد (القاهرة ١٣٧٥ – ١٣٧٧)

(ج) المجلات والرسائل :

دمية القصر للباخرزى – رسالة جامعية لسامى مكى العانى (مكتبة جامعة القاهرة رقم ٦٤٩)

ديوان الباخرزى – رسالة جامعية لمحمد قاسم مصطفى (مكتبة جامعة القاهرة رقم ٨٦٢)

مجلة الرسالة (المجلد التاسع – القاهرة)

مجلة الزهراء (الجزء الرابع من المجلد الثالث – القاهرة)

فهرس الكتاب

الصفحة

المقدمة ٥

الباب الأول : العصر

الفصل الأول : فى تاريخ العصر السلجوقى ١٥

الفصل الثانى : فى شعر العصر ٢٣

الباب الثانى : الأديب

الفصل الأول : مراجع ترجمته ٤٥

الفصل الثانى : ترجمته ٥١

الباب الثالث : النتاج

الفصل الأول : الأبيوردى الشاعر ٩٣

الفصل الثانى : الأبيوردى الناثر ١٧٠

المراجع ١٨٥

ايداع رقم ٧٧/٤٢١٣ دولى رقم ٥ ـ ٦٥ ـ ٧٢٢٢ ـ ٩٧٧

دار الجيل للطباعة ١٤ قصر اللؤلؤة ـ النجالة
تليفون ٩٠٥٢٩٦